الفصل الثالث:
تفصيـــل الكـــلام
عن بعض أعمال القلوب

obeikandl.com

المبحث الأول:

الصـــدق والإخـــلاص

هذان عملان قلبيان من أعظم أعمال القلوب وأهم أصول الإيمان .

فأما الصدق فهو الفرقان بين الإيمان والنفاق ، وأما الإخلاص فهو الفرقان بين التوحيد والشرك ، في قول القلب واعتقاده ، أو في إرادته ونيته .

والأعمال - التي رأسها وأعظمها شهادة أن لا إله إلا الله - لا تقبل إلا بتحقيق الصدق والإخلاص .

ومن هنا كانا شرطين من شروطها وأكذبَ الله المنافقين في دعوى الإيمان وقول الشهادة ؛ لانتفاء الصدق ، فقال: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ واللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١) .

وقال: ﴿ ولَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِين صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢) .

ثم قال بعد آيات: ﴿ ولَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ولَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (٣) .

وقال: ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بصِدْقِهِمْ ويُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ (٤) .

كما أبطل سبحانه زعم أهل الكتاب والمشركين أن دينهم هو الحق بانتفاء الإخلاص ، فقال: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ والْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (٥) .

---

(١) المنافقون: ١ .
(٢) العنكبوت: ٣ .
(٣) العنكبوت: ١١ .
(٤) الأحزاب: ٢٤ .
(٥) البينة: ١ .

إلى أن يقول: ﴿ ومَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَه الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ وذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (١).

وقال: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ والْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ومَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً واحِداً لا إِلَهَ إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

وكرر منافاة الشرك للإخلاص في مواضع كثيرة، منها ما في سورة الإخلاص الكبرى سورة الزمر: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَه الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(٣).

ثم قال: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَه الدِّينَ * وأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَه دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾(٤).

ثم قال: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * ولَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٥).

فعلى محك الصدق والإخلاص بطلت أكثر دعاوى العابدين وهلك أكثر الثقلين، فالصدق يخرج كل من ادعى الإيمان - أو شيئاً من أعماله - وأظهره وهو يبطن خلافه والإخلاص يخرج كل من عبد مع الله غيره أو أراد غيره معه في عمل من أعمال العبادة كما في الحديث الصحيح: قال الله تبارك وتعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**».

---

(١) البينة: ٥.
(٢) التوبة: ٣١.
(٣) الزمر: ١ - ٣.
(٤) الزمر: ١١ - ١٥.
(٥) الزمر: ٦٤ - ٦٦.

ومن هنا كانت شهادة أن لا إله إلا الله هي كلمة الصدق، وكلمة الإخلاص واقتران الصدق والإخلاص وحل كل منهما محل الآخر في الأحاديث، كأحاديث الشفاعة التي وردت بها روايات كثيرة، منها: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصة من قبل نفسه**».

وفي رواية: «**شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه**».

وفي رواية: «**رب من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله مصدقاً لسانه قلبه أدخله الجنة**».

وفي رواية: «**ثم يشفع الأنبياء في كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً فيخرجونهم، ثم يتحنن الله برحمته على من فيها، فما يترك فيها عبداً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا أخرجه منها**».

وكحديث مالك بن الدخُشم الذي كان متهماً بالنفاق، فأخبر النبي ﷺ بما يخالف ذلك في روايات، منها: «**أَمَا شهد أن لا إله إلا الله بها مخلصاً؟ فإن الله حرم على النار من شهد بها**».

وفي رواية البخاري: «**يبتغي بذلك وجه الله**»[1] مكان - مخلصاً - وفي رواية: «**والذي بعثني بالحق لئن قالها صادقاً من قلبه لا تأكله النار أبداً**» وهي تقييد الإطلاق الوارد في رواية مسلم: «**أليس يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**»[2].

والصدق والإخلاص - مع تقاربهما ومع ترادفهما أحياناً - يعرف التمييز بينهما بضد كل منهما؛ فالصدق ضده انتفاء إرادة الله بالعمل أصلاً كمن آمن أو صلّى كاذباً، لم يرد الإيمان والصلاة وإنما فعل ذلك لسبب آخر، كما فعله المنافقون حفظاً لأنفسهم وأموالهم من السيف وجبناً عن تحمل أعباء المواجهة الصريحة للإيمان.

---

(١) البخاري.
(٢) مسلم.

والإخلاص ضده انتفاء إفراد الله بالإرادة والتوجه، كمن آمن أو صلّى صارفاً ذلك لأحد من دون الله، وهذا هو الشرك الذي وقع فيه أكثر العالمين ومنهم أهل الكتاب والمشركون الذين اتخذوا من دون الله أولياء؛ من الأنبياء أو غيرهم وعبدوهم زاعمين أنهم يقربونهم إلى الله زلفى.

ومما يميز بينهما أن الصدق لا يختص بالاعتقاد، بل يكون في الأعمال أيضاً، بخلاف الإخلاص فإنه عمل قلبي محض، لكن تظهر آثاره على الجوارح، كما سبق فيما أوضحنا في العلاقة بين عمل القلب وعمل الجوارح، وهذا يشبه ما سبق من القول في اليقين والإحسان والله أعلم.

وعلى قدر تحقيق العبد لشعب الإيمان وأعماله يكون حظه من الصدق، حتى يصل إلى درجة الصديقين، يقول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[1].

وقال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾[2].

كما أن الإخلاص بالنسبة للأعمال كالروح للجسد، فالفرق بين عمل بإخلاص وعمل[3] لا إخلاص فيه، كالفرق بين البشر السوي والتمثال الشاخص.

وعلى قدر ما يحقق العبد في الإخلاص لربه يكون ترقيه في (الْمُخْلَصِينَ)، الذين صرف

---

(١) الحجرات: ١٥.
(٢) الحديد: ١٩.
(٣) البقرة: ١٧٧.

الله عنهم غواية الشيطان وأثنى عليهم في كل أمة وبين نجاتهم حين هلاك أممهم .

قال تعالى حكاية عن إبليس: ﴿إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[١] وقال في سورة الصافات تعقيباً على إهلاك الأمم عامة: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾[٢] وعن قوم إلياس خاصة ، قال فيها: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾[٣] .

وكرر ذلك في مواضع من هذه السورة وغيرها ، كقوله عن يوسف لما عصمه من الفاحشة: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[٤] .

ولهذا كثر الحديث عن الصدق والإخلاص في كتاب الله ، وجاء الحديث عن الصدق في السور التي تعرضت للنفاق وأهله ؛ كسورة براءة والأحزاب والمنافقون والقتال (محمد) والحجرات والحشر .

وجاء الحديث عن الإخلاص في السور التي تحدثت عن الشرك والمشركين ؛ كسورة الأعراف والزمر وغافر والبينة والكافرون ، بل في سورة الأنعام وإن لم يذكر فيها صريحاً .

وارتباط عمل الجوارح بالصدق والإخلاص - كارتباطه بالرضا والمحبة واليقين - أمر محسوس ظاهر ، يدل على ارتباط أجزاء الحقيقة الإيمانية الواحدة كما أسلفنا .

والإخلاص عمل عظيم ، وبه يكون الفارق بين المؤمنين والمنافقين ، لأنَّ المنافقين حتى وهم يشهدون شهادة الحق ، فإنهم يشهدون وهم كاذبون ، فإذا أردنا أن نفرق بين المؤمنين والمنافقين فالصدق والإخلاص هما أساس ذلك ، وهما من أعظم أعمال القلوب إضافة إلى المحبة واليقين ، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾[٥] نعم هكذا أمروا ، فلو عبدوا الله

---

(١) ص: ٨٣ .
(٢) الصافات: ٧٣ ، ٧٤ .
(٣) الصافات: ١٢٧ ، ١٢٨ .
(٤) يوسف: ٢٤ .
(٥) البينة: ٥ .

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من غير إخلاص ، لما قبل منهم ولما نفعهم ذلك في شيء ، لا سيما إذا فقد الإخلاص كله ، أما إذا كان الإخلاص ناقصاً أي غير مفقود فشابته شوائب ؛ فهذا لـه حكم أهل الوعيد والعصاة .

الإخلاص: هو أن تكون عاملاً بعمل البر أي عمل الخير ابتغاء مرضاة الله .

وأمـا الـرياء: فهو أن تعمل عمل البر لمحمدة الناس أي من أجل أن يمدحك الناس عليه .

والرياء ذنبه عظيم ، فمن أراد أن يكون لـه ثواب في صلاته أو في صيامه أو في حجّه أو في زكاتـه أو في جهاده أو في صدقاته أو في قراءته للقرآن أو في اعتكافه في المسجد أو في ذكر الله فليعمل هذه الأعمال طالباً للأجر والثواب من الله ولا يحب أن يمدح عند الناس .

ثـم الذي يعمل أيُ عمل من أعمال الخير والبر من أجل أن يمدحه الناس فهذا الإنسان ليس لـه ثواب عند الله في هذا العمل وعليه ذنب من الكبائر .

والإنـسان الـذي يتـصدق على الفقراء فلينوي لله رب العالمين وليخلص في هذا العمل أمـا إن فعل كما يفعل بعض الزعماء أو بعض الأغنياء يتصدقون ويوزعون حتى يقال عنه: أبـو الفقـراء ، فـلان معين الأرامل ، فلان معين المساكين فإن تصدق لهذه النية فهذا ليس لـه ثواب ولو وزع جبالاً من ذهب بل ويخرج من العمل وعليه ذنب من الكبائر الذي هو ذنب الرياء .

والرسـول حـذرنا مـنه ولعظـم ذنـبه قـال: "فإنـه الـشرك الأصـغر" أي هـو ذنب كبير ولخطـورته شـبهه بالشرك الأصغر ، وليس معناه أن المرائى يكون مشرك خارج من الدين لا وإنما المرائي يكون عليه ذنب من الكبائر .

وسـئل الـنبي ﷺ عن الإنسان الذي يقاتل يبتغى الأجر والذكر ما لـه؟ أي يبتغى الأجر مـن الله والذكر من الناس أن يقولوا عنه فلانٌ بطل مقدام في الحرب فسألوا الرسول ما لـه؟ قال: «**لا شيء لـــه**» فاستعظم ذلك الناس فقالوا للرجل لعلك لم تفهم المسألة ، أعد المسألة علـى الـنبي فرجع للرسول وسأله ثانية فقال: «**لا شي لـــه**» لأن هذا العمل لم يكن خالصاً

لوجه الله .

إذاً الإخلاص هو إكسير العمل أي روح العمل ، فإن كان هذا العمل أي عمل من أعمال الخير كان فقد الإخلاص فهو بلا ثواب وفاعله عليه ذنب من الكبائر وعليه معصية كبيرة ويستحق العذاب في الآخرة ، ثم النبي عليه الصلاة والسلام قال لهم: «**لا شيء لـه إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه**» ، وما هو هذا الإتقان؟ فسألوه عنه فقال: «**يخلصه من الرياء والبدعة**» ، أما الذي يكون مرائياً في عمله فهذا يكون عليه وزر كبير ولم يكن له ثواب في هذا العمل .

وهنا يوجد ملاحظة أن بعض الناس المغفلين يظنون أن الذي يفعل عمل البر لأجل الثواب ولأجل محمدة الناس يولون أن له نصف الأجر هذا كلام يخالف الشريعة والدليل على ذلك حديث الرجل الذي يقاتل ويبتغي الأجر والذكر فقال الرسول: «**لا شيء لـه**» . لو كان له نصف الثواب لكان الرسول أعلم بذلك ولكن الرسول قال له ثلاث مرات: «**لا شيء لـه**» ، لأنه كان مرائياً في هذا العمل .

والله تعالى أمرنا بالإخلاص وحذرنا من الرياء: ﴿**فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**﴾ معناه فليعمل عمل البر والخير والطاعة مبتغياً بذلك وجه الله لا يريد محمدة الناس لأن ما عند الناس يزول وما عند الله باق لا يزول ما عند الله خير وأبقى ولذلك كان حال السلف رضى الله عنهم هو: إذا أصلحت ما بينك وبين ربك فلا تبالى بالناس يعني إذا كنت أنت مرضيا عند الله ماذا يؤثر عليك غضب الناس لا شيء كالعدم ، من أرضى الله في سخط الناس فقد رضي الله عنه .

يعني لو إنسان أرضى رب العالمين بطاعة الله وسخط الناس عليه لا يضره ذلك في شيء ، فأنت اعمل عمل البر والتقوى مبتغياً الأجر والثواب من الله عز وجل ، لو كان معك تمرة وأردت أن تعطيها لطفل صغير أنوي لله تعالى وليس لأجل أبيه ، رسول الله ﷺ كان إذا لقى اليتيم مسح له على رأسه ليدخل السرور على قلبه فيكسب الثواب من الله ، يمسح على رأس اليتيم ليتقرب إلى الله ليس لأجل أم اليتيم بل يبتغي الثواب من الله .

ثم شؤم الرياء خطير، يعني بعض الناس بسبب هذه المعصية وصلوا إلى الكفر قبل الموت نعم المعاصي لها شؤم، المعاصي لها سواد يكون على القلب ثم الإنسان يخلص لله رب العالمين يرى أسرار العبادات والأنوار والبركات، من أخلص أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، لذلك بعض الأولياء والصالحين لَمَّا يتكلمون بالموعظة تحس بأن الأنوار تخرج معهم وبأنها خرجت من الفم إلى قلبك فوراً، أما نحن نتكلم فيخرج من الفم إلى الأذن لماذا؟ حسب الحال، لو كان الشخص حاله صادقٌ وكان مخلصاً لله فإن هذه الموعظة تنفع وتسري موعظتها بعد ذلك أيضاً لأن الإنسان الذي يستفيد من الموعظة هو الذي تدخل من أذنه إلى قلبه ويجمع بين القلب والعقل وليس يدخل من هذه الأذن ويخرج من الأخرى.

فهنيئاً لمن أخلص لله في عمله، لذلك بعض الأولياء والعلماء من شدة حرصهم على الإخلاص الله تعالى رزقهم العلم اللدني وهذا العلم غير مكتسب لا يدرك في الكتب ولا في المدارس ولا في الجامعات ولا الجوامع، وإنما الله تعالى يعطيه لمن يشاء من عباده الصالحين.

١ - أهمية الإخلاص:

١- النجاة تكون بسببه في الآخرة.

٢- اجتماع القلب في الدنيا وزوال الهم لا يكون إلا به: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر عليه**».

٣- مصدر رزق عظيم للأجر وكسب الحسنات «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليه حتى ما تجعل في فم امرأتك**»[١].

٤- ينجي من العذاب العظيم يوم الدين فقد أخبرنا ﷺ عن أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة وهم متصدق أنفق ليقال جواد، وقارئ تعلم العلم وعلمه ليقال

(١) رواه البخاري.

عالم، ومجاهد قاتل ليقال جريء . . ، وهذا الحديث حدث به أبو هريرة فكان يغشى عليه من هوله كلما أراد التحديث به، ويمسح وجهه بالماء حتى استطاع التحديث به . وفي مجال عدم الإخلاص في طلب العلم يقول ﷺ : «**من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لم يتعلمه إلا ليصيب به عرض من عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»، وقال: «**من تعلم العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار**» .

الإخلاص يريح الناس يوم يقول الله للمرائين اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء .

الإخلاص ينجي الإنسان من حرمان الأجر ونقصانه ولذلك فإن النبي ﷺ جاءه رجل غزى يلتمس الأجر والذكر فقال: «**لا شيء لـه** - ثلاثاً - **إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان لـه خالصاً وابتغي به وجهه**» .

ابن مكرز رجل من أهل الشام قال: يارسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا فقال ﷺ : «**لا أجر لـه**» . فأعظم ذلك الناس فقالوا عد لرسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه فقال لـه: «**لا أجر لـه**» .

قال ﷺ : «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» .

كذلك الإخلاص هو أساس أعمال القلوب، وأعمال الجوارح تبع ومكمل لـه، الإخلاص يعظم العمل الصغير حتى يصبح كالجبل، كما أن الرياء يحقر العمل الكبير حتى لا يزن عند الله هباء: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً**﴾ .

قال ابن المبارك: (رب عمل صغير تكثره النية ورب عمل كبير تصغره النية) .

الإخلاص مهم جداً لأن أغلب الناس يعيشون في صراعات داخلية ويعانون من أشياء فحرموا البركة والتوفيق إلا من رحمه الله، فكيف يكون النصر وتعلم العلم إلا من المخلصين، الإخلاص مهم في إنقاذنا من الوضع الذي نعيش فيه، فقد أصبح عزيزاً نادراً

قليلاً ، مشاريع ودعوات تلوثت بالرياء ، حركات إسلامية دمرت بسبب افتقاد الإخلاص وبعد أن أريد بها الرئاسة والجاه والمال . .

يقول ابن أبي جمرة وهو من كبار العلماء: وددت لو أنه كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا ، فإنه ما أتى على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك .

ومن فوائد الإخلاص أنه يقلب المباحات إلى عبادات وينال بها عالي الدرجات ، قال أحد السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي ونومي ودخولي الخلاء وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله . لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب للمهمات مطلوب شرعاً .

النية عند الفقهاء: تمييز العبادات عن العادات وتمييز العبادات عن بعضها البعض ، إرادة وجه الله عزوجل .

الإخلاص ينقي القلب من الحقد والغل ويسبب قبول العمل لأن النبيﷺ قال: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان لـه خالصاً وابتغي به وجهه**» .

الإخلاص سبب للمغفرة الكبيرة للذنوب .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه فيغفر فيه كبائر ، وإلا فأهل الكبائر كلهم يقولون لا إله إلا الله . كالبغي التي سقت كلباً فقد حضر في قلبها من الإخلاص ما لا يعلمه إلا الله فغفر الله لها .

تنفيس الكروب لا يحدث إلا بالإخلاص ، والدليل على ذلك حديث الثلاثة الذين حبستهم صخرة ففرج الله همّهم ، وكان منهم الرجل الذي وفى عاملاً أجره ونماه وصبر على ذلك سنين ، وقد كان يقول كل واحد منهم اللهم إنك إن كنت تعلم أننا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه .

وبالإخلاص يرزق الناس الحكمة، ويوفقون للصواب والحق ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾[١]، وبالإخلاص يدرك الأجر على عمله وإن عجز عنه بل ويصل لمنازل الشهداء والمجاهدين وإن مات على فراشه ﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾[٢].

وقال ﷺ: «**إن أقواماً خلفنا في المدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر**»[٣].

بالإخلاص يؤجر المرء ولو أخطأ كالمجتهد والعالم والفقيه، وهو نوى بالاجتهاد استفراغ الوسع وإصابة الحق لأجل الله، فلو لم يصب فهو مأجور على ذلك.

فالمرء ينجو من الفتن بالإخلاص، ويجعل له حرز من الشهوات ومن الوقوع في براثن أهل الفسق والفجور، لذلك نجى الله يوسف عليه السلام من امرأة العزيز: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[٤] ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾[٥].

- الإخلاص في التوحيد: قال ﷺ: «**ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر**».

- في السجود: قال ﷺ: «**ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط بها عن خطيئة**».

- في الصيام: قال ﷺ: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»، «**من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً**».

---

(١) الأنفال ٢٩.
(٢) التوبة ٩٢.
(٣) رواه البخاري وفي مسلم: ((إلا شاركوكم في الأجر)).
(٤) سورة يوسف: ٢٤.
(٥) الصافات: ٤١.

- في قيام الليل: قال ﷺ : «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر لـــه ما تقدم من ذنبه**) .

- الإخلاص في ترك الحرام، المحبة في الله، الصدقة . . . . (حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله) .

- الإخلاص في الخروج إلى المساجد: «**خرج للمسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخطو خطوة إلا رفعت لـــه بها درجة وحطت به خطيئة، فإن صلى ما دامت الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه اللهم صل عليه اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة**» .

- الإخلاص في طلب الشهادة: «**مـــن سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**» .

- الإخلاص في اتباع الجنائز: «**من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً وكان معه حـــتى يـــصلى عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط كأحد ومن صلى ثم رجع قبل أن يدفن فإنه يرجع بقيراط**» .

- الإخلاص في التوبة: (قصة قاتل المائة نفس وملائكة الرحمة) .

الإنسان يحتاج أن يبين لنفسه بالكلام أشياء مما ينويه حتى يزداد أجره كرجل ليس لديه مال فيقول لو كان لي مثل هذا عملت مثلما يعمل . قال ﷺ : «**فهما في الأجر سواء**» .

لقد مر في الأمة كثير من المخلصين كانت سيرتهم نبراساً لمن بعدهم وقدوة وخيراً، لذلك أبقى الله سيرتهم وذكرهم حتى يقتدي بهم من بعدهم وعلى رأس هؤلاء الأنبياء، النبي محمد ﷺ وحواريو الأنبياء والصحابة الذين فتحوا البلاد بإخلاصهم ومن بعدهم من التابعين .

يقول عبدة بن سليمان: كنا مع سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم، فلما التقى ساعة قطعنه ازدحم الناس عليه ليعرفوا من هو فإذا هو يلثم وجهه، فإذا هو عبد الله بن

المبارك فقال لائماً أءنت يا أباعمر ممن يشنع علي .

يقول الحسن: إن كان الرجل جمع القرآن ولما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لينفق النفقة الكثيرة ولما يشعر الناس به ، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته ولم يشعر الناس به ، ولقد أدركت أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملونه في السر فيكون علانية أبداً .

لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً**﴾ .

يقول علي بن مكار البصري الزاهد: (لأن ألقى الشيطان أحب إلي من أن ألقى فلاناً أخاف أن أتصنع له فأسقط من عين الله) فقد كان السلف يخشون من قضية المجاملات .

قال الذهبي: يقول ابن فارس عن أبي الحسن القطان: (أصبت ببصري وأظن أني عوقبت بكثرة كلامي أثناء الرحلة) .

قال الذهبي: صدق والله فإنهم كانوا مع حسن القصد وصحة النية غالباً يخافون من الكلام وإظهار المعرفة .

قال هشام الدستوائي: (والله ما أستطيع أن أقول إني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عز وجل) .

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وما بين الناس**» .

ومن عجائب المخلصين ما حصل لصاحب النفق ، حاصر المسلمون حصناً واشتد عليهم رمي الأعداء ، فقام أحد المسلمين وحفر نفقاً فانتصر المسلمون ، ولا يُعرَف من هو هذا الرجل ، وأراد مَسْلَمَة يريد أن يعرف الرجل لمكافأته ، ولما لم يجده سأله بالله أن يأتيه ، فأتاه طارق بليل وسأله شرطاً وهو أنه إذا أخبره من هو لا يبحث عنه بعد ذلك أبداً ، فعاهده ، وكان يقول: (اللهم احشرني مع صاحب النفق) .

وعمل الخلوة كان أحب إلى السلف من عمل الجلوة .

يقول حماد بن زيد: كان أيوب ربما حدث في الحديث فيرقّ وتدمع عيناه ، فيلتفت وينتخط ويقول ما أشد الزكام!! ، فيظهر الزكام لإخفاء البكاء .

قال الحسن البصري: (إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها فإذا خشي أن تسبقه قام وذهب وبكى في الخارج) .

يقول محمد بن واسع التابعي: (إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته لا تعلم) .

للإمام الماوردي قصة في الإخلاص في تصنيف الكتب ، فقد ألف المؤلفات في التفسير والفقه وغير ذلك ولم يظهر شيء في حياته لما دنت وفاته قال لشخص يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي وإنما إذا عاينت الموت ووقعت في النزع فاجعل يدك في يدي فإن قبضت عليها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء فاعمد إليها وألقها في دجلة بالليل وإذا بسطت يدي فاعلم أنها قبلت مني وأني ظفرت بما أرجوه من النية الخالصة ، فلما حضرته الوفاة بسط يده ، فأظهرت كتبه بعد ذلك .

كان علي بن الحسن يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين بالظلمة ، فالصدقة تطفيء غضب الرب ، وكان أهل بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين معاشهم ، فلما مات عرفوا ، ورأوا على ظهره آثاراً مما كان ينقله من القرب والجرب بالليل فكان يعول مائة بيت .

تلك الأحوال والقصص أظهرها الله ليكون أصحابها أئمة ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾[1] .

وهكذا كان أحدهم يدخل في فراش زوجته فيخادعها فينسل لقيام الليل وهكذا صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله فكان يأخذ إفطاره ويتصدق به على المساكين ويأتي على العشاء .

---

(١) الفرقان: ٧٤ .

وهذا أعرابي كان مع النبي ﷺ وقال له أهاجر معك ، فغنموا بعد خيبر وقسم للأعرابي وأصحابه وكان يرعى دوابهم فلما جاءوه قال للنبي ﷺ ما هذا الذي وصلني؟ ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا بسهم فأموت فأدخل الجنة . قال ﷺ : «**إن تصدق الله يصدقك**» ، فلبثوا قليلاً وهاجموا العدو وأثاب الله الأعرابي كما طلب فقيل أهو أهو قال ﷺ : «**صدق الله فصدقه**» فكُفّن في جبة النبي ﷺ ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من دعاء النبي ﷺ في الصلاة: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك وقتل شهيداً أنا شهيد على ذلك**» .

٢ – شجرة الاخلاص:

يقول ابن القيم: السنة شجرة والشهور فروعها والأيام أغصانها والساعات أوراقها والأنفاس ثمرها ، فمن كانت أنفاسه فى طاعة فثمرة شجرته طيبه . ومن كانت فى معصية فثمرته حنظل (غير طيبة) . وإنما يكون الجداد (الحصاد) يوم المعاد (يوم القيامة) ، فعند الجداد (الحصاد) يتبين حلو الثمار من مرها .

والإخلاص والتوحيد شجرة فى القلب فروعها الأعمال وثمرها طيب الحياة فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة ، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فثمرة التوحيد والإخلاص فى الدنيا كذلك .

و الشرك والكذب والرياء شجرة فى القلب ثمرها فى الدنيا الخوف والهم والغم وضيق الصدر ، وظلمة القلب ، وثمرها فى الآخرة الزقوم والعذاب المقيم ، وقد ذكر الله هاتين الشجرتين فى سورة ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

ماذا قال بعض العلماء في الإخلاص . . .؟

قال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله عبداً أحب الشهرة .

قال بعضهم: ينبغي للعالم أن يتحدث بنية وحسن قصد ، فإن أعجبه كلامه فليصمت وإن أعجبه الصمت فلينطق . فإن خشي المدح فليصمت ولا يفتر عن محاسبة نفسه فإنها تحب الظهور والثناء .

سُئِل سهل بن عبد الله التستوري: أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب . فمع الإخلاص تنسى حظوظ النفس .

قال سفيان: ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي إنها تنقلب علي . إذا أراد أن يجاهد نفسه يجد تقلبات ، ولا يدري أهو في إخلاص أم رياء ، وهذا طبيعي أن يشعر أنه في صراع لا تسلم له نفسه دائماً فهو يتعرض لهجمات من الشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، وهذا فيه خير ، أما من اطمأنت نفسه بحاله فهذه هي المشكلة .

قال ابن يحيى بن أبي كثير: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل .

قال الزبيد اليامي: إني أحب أن تكون لي نية في كل شيء حتى في الطعام والشراب .

عن داود الطائي: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيراً وإن لم تنصب . أي حتى وإن لم تتعب فإن ما حصلته من اجتماع نفسك لله وإخراج حظوظ النفس من قلبك ، هذا أمر عظيم .

أبو بكر الصديق رضي الله عنه ما سبق الناس بأنه كان أكثرهم صلاة وصيام بل بشيء وقر في قلبه .

قال داود: البر همة التقي ، ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا لردته يوماً نيته إلى أصلها .

قال يوسف بن أسباط: تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد .

قيل لنافع بن جبير: ألا تشهد الجنازة فقال: كما أنت حتى أنوي . أي انتظر حتى أجاهد نفسي .

قال الفضيل: إنما يريد الله عز وجل منك نيتك وإرادتك .

ومن أصلح الله سريرته أصلح الله علانيته ومن أصلح ما بينه وما بين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ، وما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله في صفحات وجهه وفلتات لسانه .

والمخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته ومن شاهد في إخلاصه الإخلاص فإن

إخلاصه يحتاج إلى إخلاص .

ومما قيل في الإخلاص:

- نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .
- إفراد الحق سبحانه بالقصد والطاعة .
- استواء عمل الظاهر والباطن .
- من تزين للناس فيما ليس منه سقط من عين الله .
- إنه سر بين الله والعبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده والله قد يعلم الملائكة ما يشاء من أحوال العبد .
- الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً إلا الله ، وإذا داوم عليه الإنسان رزقه الله الحكمة .

قال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

قال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطع عنه كثرة الوساوس والرياء .

كان السلف يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا يعلم عنها زوجة ولا غيرها . وأعز شيء في الدنيا الإخلاص .

يقول يوسف بن الحسين: كم أجتهد في إسقاط الرياء من قلبي فينبت لي على لون آخر .

وكان من دعاء مطرف بن عبدالله: اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمته .

٣ - علامات الإخلاص:

١- الحماس للعمل للدين .

٢- أن يكون عمل السر أكبر من عمل العلانية .

٣- المبادرة للعمل واحتساب الأجر .

٤- الصبر والتحمل وعدم التشكي .

٥ - الحرص على إخفاء العمل .

٦- إتقان العمل في السر .

٧- الإكثار من العمل في السر .

٨- شرطا قبول الأعمال .

٩- هذا من جهة علاقة هذا العمل القلبي بغيره من أعمال القلب ، وأما عن أهميته وضرورته للمؤمن ، فلا شك أن من تأمل كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ، علم علم اليقين أن الإخلاص لا بد منه ، وذلك أول ما يشترط في أمر العقيدة والإيمان ، ثم إنه لا بد أن يدخل في كل عمل من الأعمال التي يعملها الإنسان يريد بها وجه الله ، ويريد بها الثواب والأجر من عند الله .

حتى لو أنك عملت عملاً من المباحات المجردة وليس من الطاعات المفروضة المشروعة وجوباً أو استحباباً ، أو أي عمل من الأعمال التي يفعلها الناس بطبيعتهم كالأكل أو الشرب أو إتيان المرء أهله أو ما أشبه ذلك ، كل من فعل ذلك ويريد الأجر من الله ، ويريد أن يحتسبه عند الله ، فلا بد أن يحقق فيه الإخلاص لله تبارك وتعالى ؛ لأن شرطي قبول أي عمل من الأعمال هما المتابعة والإخلاص .

الشرط الأول: المتابعة:

أولاً: الشرط الأول: المتابعة والموافقة لما شرع الله تبارك وتعالى ، فالبدع مردودة على أهلها ، فمهما اجتهدوا وتعبدوا وأخلصوا في نظرهم ، فالبدع مردودة ، كما قال ﷺ : «**كل**

بدعـــة ضلالة» وقال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»، وقال: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**» أي: مردود لا يقبل.

وإن ظن أنه فعله لوجه الله تبارك وتعالى، كما فعل الثلاثة النفر الذين عزموا على أنفسهم، فقال الأول: أقوم الليل ولا أنام، وقال الثاني: لا أتزوج النساء، وقال الثالث: لا آكل اللحم، وما أشبه ذلك، فكل عمل يعمله العبد ويظن أنه مخلص ويتعبد به، لن يكون فيه أكثر عبادةً من الخوارج، ولن يكون أكثر عبادةً من رهبان اليهود والنصارى والهندوس ممن تَرَهَّب منهم.

ولذلك فإن النبي ﷺ بعد أن ذكر الخوارج وعبادتهم قال: «**تحقرون صلاتكم إلى صـــلاتهم، وعبادتكم إلى عبادتهم**» - ثم قال: «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**» والرمية: هي ما يرمى من الصيد كظبي أو نحوه، فيدخل السهم فيخترقه ويخرج، فلا يكاد يرى راميه فيه شيئاً من أثر، ومعنى ذلك أنهم يأتون الدين، ويخرجون منه بلا شيء، أو بما لا يكاد يُرى.

ليس لأنهم لم يتوفر لديهم شرط الإخلاص؛ ولكن لأنه لم يتوفر لديهم شرط الموافقة والمتابعة لرسول الله ﷺ، وهذا الذي ذكر الله تبارك وتعالى في قوله: «**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**»[1]، فالعمل الصالح هو الموافق لما جاء به النبي ﷺ.

الشرط الثاني: الإخلاص

ثانـــياً: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحداً ﴾[2] أي: فليجعله خالصاً لوجه الله الكريم، وهذا هو شرط الإخلاص، ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[3]، قال: (أصوبه وأخلصه) والصواب هو الموافقة، والإخلاص: هو الشرط الثاني كما تقدم.

---

(١) الكهف: ١١٠.
(٢) الكهف: ١١٠.
(٣) هود: ٧.

فإذا كان الإخلاص بهذه المثابة فإن أهميته لا تخفى، ولا سيما في أصل الدين، فهو أعظم اشتراطاً منه في الفروع؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول - كما في الحديث القدسي -: «**من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك**»، وفي رواية: «**تركته وشركه**» ومعنى ذلك: أن الله تبارك وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، وأما غير ذلك فهو غنيٌ عنه تبارك وتعالى.

فإذا لم يقبل الله تعالى من العبد طاعةً من الطاعات إلا أن لديه أصل التوحيد والدين، فإنه يخسر تلك الطاعة ويظل معه الإيمان والتوحيد، أما إذا كان الإخلاص مفقوداً وكان الشرك في أصل الإيمان والدين، فهذا قد خسر الدنيا والآخرة.

ولهذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ** ﴾ [١]، هذا الذي يقبله الله تبارك وتعالى من عباده، ولا يقبل منهم غير ذلك. [٢]

٥ - حقيقة الإخلاص:

قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[٣]، ﴿ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ** ﴾[٤].

هذه الآيات الكريمات من سورة الزمر، وأيضاً ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها ما يدل على ذلك: ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾[٥]، وهذه السورة اشتملت على معانٍ عظيمة في الإيمان من أبرزها

---

(١) الزمر: ٢ - ٣.
(٢) الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي/ من أعمال القلوب.
(٣) الزمر: ١١، ١٢.
(٤) الزمر: ١٤، ١٥.
(٥) الزمر: ٦٤، ٦٦.

- لمن قرأها وأظهرها -: أنها كررت اشتراط الإخلاص في غير ما آية، وأوضحته وأجلته.

وكذلك نجد بعض السور القرآنية العظمى التي تتحدث عن التوحيد تشترط ذلك، وإن لم تنص عليه نصاً، كما في سورة الأنعام، فإن أكثر معانيها وموضوعاتها تتعلق بتوحيد الله وتجريد العبادة له، ونفي الشرك عنه.

وهذه هي حقيقة الإخلاص وإن لم يرد في السورة بالنص نفسه، ولهذا تسمى سورة "الصمد"، أو سورة "قل هو الله أحد" سورة الإخلاص؛ لأنها في إخلاص العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من جهة توحيد المعرفة، إخلاص التوحيد من جهة المعرفة والإثبات، فهي تثبت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1] تثبت وحدانية الله تبارك وتعالى، وتنفي عنه ما يزعمه المبطلون، الذين يدّعون أن لله تبارك وتعالى ولداً، أو أن له كفؤاً أو شبيهاً أو نظيراً، تعالى الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين.

وكذلك تسمى سورة الكافرون سورة الإخلاص؛ لأنها تضمنت حقيقة الإخلاص من جهة الولاء والبراء والهجر، هجر كل ما يعبد من دون الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[2]، وفي آخرها: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[3].

فهذه براءة أو مفاصلة ومقاطعةٌ كاملة بين العبادتين وبين المنهجين، ومن هنا كان الذي أخذه وعده الله تبارك وتعالى وسجَّله على أهل الكتاب وعلى المنافقين أنهم كانوا غير مجردين للصدق، وغير مجردين للإخلاص لله تبارك وتعالى، بل إن ذلك - ولا سيما الإخلاص - يشمل أيضاً المشركين، وذلك أن الجامع بين الجميع هو دعوى أنهم يعبدون الله وأنهم يتقربون إليه.

---

(١) الإخلاص: ١ - ٤.
(٢) الكافرون: ١ - ٣.
(٣) الكافرون: ٦.

٦ - المشركون أبعد الناس عن الإخلاص:

فالمشركون - مثلاً - وهم أبعد الناس عن الإخلاص يدَّعون أنهم يعبدون الله، وأنهم يُعظِّمون حرمات الله، ويُعظِّمون بيت الله، وأنهم أتباع نبي الله إبراهيم عليه السلام، ثم إنهم يقرون لله تبارك وتعالى بالخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير الأمر، وغير ذلك ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾[١]، أو: ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[٢].

إذاً: هم يثبتون هذا، بل إنهم حتى في دعائهم يخلصون لله تبارك وتعالى، ولكن وقت الشدة فقط، فإذا كان وقت الرخاء ونجّاهم الله تبارك وتعالى إلى البر - وكان من أشق الأمور عليهم أن يركبوا البحر، ولذلك يأتي هذا المثال كثيراً في القرآن فلما نجاهم إلى البر - أشركوا بالله ما لم ينزل عليهم سلطاناً.

إذاً: المشركون أيضاً يكذبهم الله تبارك وتعالى، ويبطل عبادتهم في دعواهم، لماذا؟

لأنهم لم يحققو الإخلاص، وإن كانوا يزعمون أو يظنون أنهم على شيء من الدين، ولذلك كما جاء في أول الزمر: ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾[٣].

فهم يظنون أنهم بهذا يعبدون الله، ويتقربون بهم إلى الله، فيظنون أن عبادتهم هذه لله، وأنهم لم يشركوا بالله، فكأنما ينفون ما يدَّعى أو يزعم عليهم من أنهم لا يعبدون الله، أو أنهم يشركون بالله تبارك وتعالى، فأبطل الله تبارك وتعالى عبادتهم، وأنها لا تنفعهم؛ لأن الدين الذي يقبله الله هو الدين الخالص الذي لا شرك فيه، ولا شائبة معه.

أمَّا أن يتخذ من دونه أولياء - وإن كان قصد القائل أنها تقرب إلى الله - فإنه لا يقبل منه ذلك، وهذا الزعم أنهم أولياء، أو كما ذكر في الآية الأخرى: ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ

---

(١) الزخرف: ٩.
(٢) الزمر: ٣٨.
(٣) الزمر: ٣.

شُفَعَاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [١] ، فقد أبطل الله تبارك وتعالى ذلك كله بأن جعل الشفاعة لـه جميعاً ، وجعل الشرطين اللذين لا بد منهما لمن يشفع لتحقيق الشفاعة يوم القيامة هما: أن يأذن الله تبارك وتعالى للشافع ، وأن يرضى عن المشفوع لـه .

وهـؤلاء المـشركون لا يرضى الله تبارك وتعالى عنهم ، ولا يرضى أن يشفع فيهم أحد ؛ لأنه لا يرضى لعباده الكفر تبارك وتعالى ، هذا في حق المشركين وهو واضح .

٧ – إخلاص أهل الكتاب:

وأمَّـا أهـل الكـتاب فـإنهم يـزعمون أنهـم هم أهل الإيمان ، وأنهم كما ذكر الله تبارك وتعـالى عـنهم: ﴿ وَقَالَـتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [٢] ويزعمون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى .

إذاً: هـم يرون أنهم أصحاب الصراط المستقيم ، وأنهم الذين يعبدون الله تبارك وتعالى وحده لا شريك لـه ، ولو سألت إلى هذه اللحظة أي يهودي أو نصراني: من الذي يعبد الله تعـالى حـق العـبادة خالـصة لـه في هـذه الحـياة الدنـيا؟ لقال اليهودي: إنهم اليهود ، وقال النصراني: إنهم النصارى ، وهذا باطل .

وقد أبطله الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه ، كما في سورة البينة: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُـحُفاً مُطَهَّـرَةً * فِـيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ [٣] .

وبـين ذلـك قـال: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَـهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الـصَّلاةَ وَيُؤْتُـوا الـزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [٤] ، هذا دين القيمة وهو الذي قال الله

---

(١) يونس: ١٨ .
(٢) المائدة: ١٨ .
(٣) البينة: ١ ـ ٤ .
(٤) البينة: ٥ .

فيه: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾[١] وقال: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٢].

فهؤلاء أمروا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين، ولكنهم أبوا إلا أن يشركوا بالله تبارك وتعالى بأنواع وألوان من الشرك، منها: دعواهم أن له ولداً - تبارك وتعالى وتقدس عن ذلك - وهذا الزعم قد أبطله الله تعالى في أكثر من موضع كما في الأنعام والكهف ومريم وغيرها من الآيات العظيمة في استنكار ذلك، وكما في قوله: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾[٣].

وهذه الدعوى واضح بطلانها وإفكهم فيها، ثم إنهم يشركون بالله ولا يجردون الإخلاص لله تبارك وتعالى في ما يتعلق بالتحليل - في التشريع - والتحريم، في توحيد الطاعة والاتباع، وهذا أيضاً ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٤].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرهم وأن يعبدوا إلهاً واحداً، فعبدوا من دونه آلهةً أخرى، وأشركوا به تبارك وتعالى في التحليل والتحريم الأولياء - كما يزعمون - أو الأحبار أو الرهبان.

والأحبار هم: علماء أهل الكتاب.

والرهبان هم: عبادهم.

والضلال لا يخرج عن هذين، فكل ضلال وقعت فيه الملل فهو بسبب أحد هذين الأمرين، بأن يشرك الناس أحد من اتصف بهاتين الصفتين.

وهذا واقع في هذه الأمة، إما أن يشركوا بالله تبارك وتعالى، أو لا يجردون الإخلاص -

---

(١) آل عمران: ١٩.
(٢) آل عمران: ٨٥.
(٣) الاخلاص: ١.
(٤) التوبة: ٣١.

وإن كان دون الشرك - لا يجردون هذا المبدأ، وهذا العمل القلبي العظيم لله تبارك وتعالى في طاعة واتباع أهل العلم، الذين يجمعون المسائل العلمية الكثيرة، ولكنهم غير مؤمنين حق الإيمان، فليسوا هم العلماء الذين وصفهم الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[1]، أي: هم الذين يخشون الله ويتقونه، أو كان العلماء كذلك، ولكن أخطأوا فجاء الأتباع فأشركوا بجعلهم آلهة، وألّهوهم بتقديم ما أخطأوا فيه على ما يعلمون من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهؤلاء هم العلماء.

وأما العبّاد: فإن كثيراً من الناس يفتنون بالعبّاد في أي ملة كانت، فيقدمون أعمالهم وآرائهم وما يعبدون أو يتقربون به على ما في كتاب الله، وعلى ما في سنة رسول الله ﷺ، وهذا يقدح في إخلاصهم ويجعلهم بذلك مشركين.

ومن هنا فإن الله تبارك وتعالى اشترط ذلك، وذكر أنه طلب من أهل الكتاب الإخلاص لله تبارك وتعالى، وهو الذي جاء في آية آل عمران: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[2].

فهذا - أيضاً - هو تجريد العمل والإخلاص الكامل لله تبارك وتعالى، أما أن تتخذ مفهوم الآية - أن يعبد بعضكم بعضاً، أو يعبد بعضنا بعضاً الملوك أو الأحبار أو الرهبان أو ما أشبه ذلك، فإننا بذلك لا نكون مؤمنين ولا موحدين، بل نشترط ونطلب ذلك منهم، فهذا بالنسبة لأهل الكتاب.

٨ - إخلاص المنافقين:

أما بالنسبة للمنافقين فإن الأمر في حقهم أوضح وأجلى، فالمنافقون من أخص أعمالهم وصفاتهم الكذب، كاذبون في دعوى الإيمان، كاذبون في الشهادة بالرسالة - كما في أول سورة المنافقون - كاذبون في عبادتهم، وهم في الحقيقة كما ذكر الله تبارك وتعالى

---

(١) فاطر. ٢٨.

(٢) آل عمران: ٦٤.

عنهم: ﴿ يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إلا قَلِيلاً ﴾[١].

فهذا الرياء والكذب في دعواهم أنهم مؤمنون وليسوا كذلك، وأنهم كما ذكر الله تبارك وتعالى من صفاتهم في أول البقرة: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلا أَنْفُسَهُمْ ﴾[٢]، وغير ذلك.

هم بهذه الصفات قد جانبوا وضادوا معنى الإخلاص الذي طلبه الله تبارك وتعالى واشترطه من عباده، وكذلك معنى الصدق.

ولذلك نجد أن الآيات التي تتحدث عن المنافقين، وعن أعمالهم يأتي فيها هذان الأمران العظيمان، مثلاً: سورة التوبة، الفاضحة المشقشقة المخزية التي فضحت المنافقين، وأخزتهم وأظهرت بواطنهم وكشفتها، هذه السورة العظيمة يقول الله تبارك وتعالى بعد أن فضحهم، وبيَّن أعمالهم ومنهم، ومنهم، ومنهم، ويقولون، وفعلوا، وفعلوا... مما ذكر الله تبارك وتعالى، قال في آخرها موجهاً الخطاب للمؤمنين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[٣]، لأن ما تقدم في حق المنافقين يشمله أنهم كاذبون فلم يكونوا من الصادقين.

وأما إخلاص الدين لله تبارك وتعالى، فإن الله عز وجل ذكر ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا * إلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾[٤].

فقد جعلهم الله تبارك وتعالى في الدرك الأسفل من النار، فهم أشد الناس كفراً وإظهاراً لمعاندة ما جاء من عند الله، وتكذيباً لرسل الله، فلا ينفعهم أبداً دعوى الإيمان وزعمه إلا بأن يحققوا هذه الشروط، وهي التوبة والإصلاح،

---

(١) النساء: ١٤٢.
(٢) البقرة: ٩.
(٣) التوبة: ١١٩.
(٤) النساء: ١٤٥، ١٤٦.

والاعتصام بالله تبارك وتعالى.

إخلاص الدين لله عز وجل، وهذا دليلٌ على أن من أعظم ما يشوب أعمالهم هو ترك الإخلاص، وهو الشرك - وإن كان النفاق درجات وإن كانت الأعمال درجات - والناس درجات في هذا، لكن مثل هؤلاء الموصوفين بأنهم في الدرك الأسفل من النار، هؤلاء هم أهل النفاق الأكبر، فشركهم أو تركهم الإخلاص؛ لأنهم لم يخلصوا لله تبارك وتعالى في أصل الإيمان وفي أصل الدين.

أما ما عدا ذلك، وهو من يشرك بالله تبارك وتعالى ولا يخلص له في عمل من الأعمال، فإن ذلك العمل يحبط ويبطل؛ لأنه كما تقدم في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً** - وهذا مطلق سواء كان في أصل الدين عملاً كبيراً عظيماً أو أياً كان - **أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**».

وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يحذر من الشرك دقيقه وجليله، وأن يحذر من الرياء؛ لأنه ضد الإخلاص، ولأن الرياء هو نوع من أنواع الشرك الأصغر، نسأل الله تعالى أن يحفظنا وإياكم من الشرك ما علمنا منه وما لم نعلم [1].

٩ - ثمرة الإخلاص في العلم والوقت:

ما أعظم ثمرات الإخلاص، وما أحوج المسلمين، وما أحوج المتقين، وما أحوج العباد الذين يريدون الله والدار الآخرة، ويعلمون حقارة وتفاهة هذه الحياة الدنيا، أن يخلصوا أعمالهم لله عز وجل، فيرون الثمرات ويرون البركات، ويرون أموراً لا يمكن أن يصدقها أحد في حدود المنظور المادي، والواقع العادي عند الناس.

ومن ذلك أن العلماء الذين كتبوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وطلبوا العلم بإخلاص؛ جعل الله تبارك وتعالى لهم من البركة في أوقاتهم وأعمارهم وعلومهم، ونفع بهم كثيراً.

---

(١) الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي.

ومن ذلك - مثلاً - صحيح البخاري، فكم من الكتب كتبت وألفت؟! لكن هذا الكتاب لما أخلص صاحبه لله، وكان لا يكتب الحديث إلا بعد أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويستخير الله، وكان فيه من العبادة والزهد في الدنيا، ما هو معلوم من سيرة الإمام البخاري رحمه الله.

لما كان كذلك بارك الله له في وقته، وبارك له في علمه، وجعل هذا الكتاب بهذه الدرجة والمنزلة، فهو أصح كتابٍ بعد كتاب الله، وتلقاه المسلمون قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة بالقبول، وهذه كرامة عظيمة، وإلا فكم، وكم أُلِّف من كتب، لكن ليس لها ما لهذا الكتاب.

كذلك حياة الإمام أحمد رضي الله عنه وأرضاه، وما أعطاه الله تبارك وتعالى من القبول، فإنه شيء مدهش، حيث كان الإمام أحمد رحمه الله إذا أشار بيده لرجل أن ينعم، أو إذا ذكر فلان وقال: نعم، فقط: نعم، أثنى عليه بأنه نعم، أو نِعْم الرجل، أو ما أشبه ذلك، رفعه الله عند الأمة قاطبة، فيرتفع هذا الرجل، وتنقل هذه التزكية من بغداد إلى خراسان إلى مصر إلى الأندلس وإلى كل مكان، وتسجل وتكتب، أن أحمد قال فيه: نعم الرجل أو أثنى عليه أو ذكره بخير، فتكون تزكية له وقبولاً لروايته وعلمه، وتصحيحاً لعقيدته.

وإن قال في أحدٍ: لا، أو نحو ذلك، سقط مهما كان علمه ومهما كانت قيمته، وينتشر هذا الجرح في الآفاق حتى لا يكاد أن تجده عند أحد إلا وقبله حتى وإن زكاه غيره لا بد أن يقول: ولكن أحمد قال فيه كذا.

والخليفة المتوكل من شدة حرصه على أن يزكى لدى الأمة كعادة الحكام في كل زمان ومكان، طلب من الإمام أحمد أن يأتي إليه؛ لأن الناس يعلمون أن الإمام أحمد لا يأكل إلا من طعام حلال، فيريد أن يأتي إليه ويطعم من طعامه، فيتحدث الناس بذلك، فيتزكى المتوكل عند الأمة بأن الإمام أحمد أكل من طعامه فقط، ولو لم يثن عليه ولا بكلمة.

فأبى الإمام أحمد، ثم لَمَّا ألحَّ عليه الخليفة، وهو المتوكل الذي أحيا الله به السنة وقمع به البدعة، وله فضل على أهل السنة والجماعة، وهو إمام المسلمين، فلم ير بداً من أن يطيعه، فذهب إليه ولكنه واصل الصيام.

حتى يقول ابنه عبد الله وابنه صالح: أشفقنا وخشينا على الإمام من الموت، واصل الأيام والليالي، وكان لا يشرب إلا الماء؛ لأن الماء ليس لأحد فيه فضل، والمتوكل يظن أنه يطعم من طعامه، لأنه لم يقابله ولم يجالسه على مائدة، فلِمَ كانت لهم هذه المنزلة؟! إنما هي بإخلاصهم لله تبارك وتعالى.

ثم من ناحية البركة في الوقت: انظر مؤلفات شَيْخ الإسْلام ابن تيمية رحمه الله، ومؤلفات الذهبي، ومؤلفات ابن كثير، ومؤلفات النووي ترى عجباً، عندما ترى هذه المؤلفات مع ما تعرضوا له - ولا سيما مثل ابن تيمية رحمه الله - من النفي والسجن والأذى والمحاكمات وحرق الكتب، وحبس ما يكتب به، والاشتغال مع ذلك بالعبادة، بل حتى بالجهاد، شَيْخ الإسْلام رحمه الله جاهد الباطنيين، وجاهد التتار، جهاد وعلم، تحصيل للعلم وتنقيب في الكتب، وعبادة، ثم يؤلف هذه الكتب، كيف كان ذلك؟!

نحن الآن كما ترون نسأله عز وجل البركة في أوقاتنا وأعمارنا، وأن يرزقنا الإخلاص الذي به تحل البركة، الطالب يظل خمس سنوات في الدكتوراه ثم يخرج كتاباً إذا قرأته وجدت أنه نُقول فحسب، لو جدَّ فيها لجمعها في أشهر، ولو كان من السلف لجمعها في أيام وأسابيع؛ فإنها مجرد نقول فحسب، ولم يفن هذا العمر؟

إن هذا بقدر ما لدينا من إخلاص، فكيف هذه؟

حتى قال بعضهم: لو قسمت عمره على كتبه لوجدت أنه كان يكتب في كل يومٍ كراسة من عشرين لوحة، فهل يمكن لأحد أن يكتب هذه، ومتى يحققها؟

ومتى يحررها؟

وإذا طلبنا من أخ مقالاً في صفحة واحدة فإنه سيكتبها الليلة ويراجعها في

اليوم الذي بعده، وينقحها بعد ذلك، وقد يمضي الأسبوع ولم يأت بها، سبحان الله!! كيف يكتب هؤلاء، إذا كتب عشرين لوحة محررة منقحة بأقوال معزوة إلى أصحابها، وأمانة في النقل، ودقة في الاستنباط، لا يمكن أن يكون هذا إلا ببركة من الله تبارك وتعالى في عملهم، وذلك بسبب إخلاصهم لله عز وجل.

ولذلك أوتوا الهمة العليا، فعندما قال الإمام الطبري رحمه الله لتلاميذه: سأُملي عليكم التفسير في ثلاثمائة مجلد، قالوا: هذا كثير - ثلاثمائة كثير لا يستطيعونها - فقال: الله أكبر!! ضعفت الهمم، فجعله في ثلاثين بدلاً من الثلاثمائة، فهذه الثلاثون جزءاً، كانت على قدر الهمم، فسعة تفسير الطبري، وما فيه من الأقوال والأسانيد، وأقوال له في اللغة رواية ودراية معاً، فهذا كتبه رحمه الله لضعيفي الهمم، ونحن الآن نقول: الطبري يحتاج أن نختصره، وبالفعل يختصر؛ لأن ما عليه الهمة الآن هي عُشر ما كانت عليه في أيام تلاميذ الطبري... وهكذا، فلماذا تضعف الهمة؟

تضعف الهمة بقلة الإخلاص، ومع الإخلاص تكون أعلى، ويكون اليقين أكثر، وإذا اجتمع للإنسان الإخلاص واليقين والمحبة وسائر ما ذكرنا، وما سنذكر من أعمال القلب، فإنه يكون في غاية الهمة.

والصحابة رضوان الله تعالى عليهم لما تحقق لهم ذلك لم يفكروا على الإطلاق في قوى الدنيا كلها مهما كانت، بل ترسل الجيوش شرقاً وغرباً، براً وبحراً ولا يبالون، ولا ينظرون إلى العدو - نعم يعدون العدة تماماً -- ويستطلعون أموره كأدق ما يكون من الدراسات الاستراتيجية أو الاستخبارات العسكرية، لكن يعلمون أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله، فلم تقم أمامهم أية قوة، إنما هم انتصروا بإيمانهم وبتقواهم وبإخلاصهم وبصدقهم مع الله تبارك وتعالى.

ثم بقيت مسألة نختم بها وهي: أن الإخلاص يورث العبد بأن يكون من المخلصين؛ وهذا لأن الجزاء من جنس العمل، فإذا أخلص العبد وصدق مع الله

تبارك وتعالى، فإنه يجعله الله تبارك وتعالى من المخلصين، والمخلَصون هم صفوة وخيرة من خلق الله تبارك وتعالى، وهم الذين يعرفون الله، ومن أهم صفاتهم - وهي كثيرة - أنهم يعرفون الله تبارك وتعالى، كما في سورة الصفات، بعد أن ذكر الله عز وجل حال المشركين وأمثالهم الذين نسبوا إلى الله تعالى الولد، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً، قال عقب تلك الآيات: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1]، ﴿ إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾[2].

فكل ما يصفه به الواصفون فهو منزه عنه، إلا ما يصفه به من يعرفونه ويقدرونه حق قدره، ويصفونه بصفات الكمال والثناء والمحامد المرضية.

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعلنى وإياكم من المخلَصين المخلِصين، وأن يتقبل منا أعمالنا جميعاً، وأن لا يجعل فيها شيئاً لأحدٍ غيره إنه سميع مجيب.

* * * * *

(١) الصافات: ١٥٩.
(٢) الصافات: ٤٠.

المبحث الثاني:

التوكـل

إنَّ أعمال القلوب كثيرة ، والقاعدة في ذلك: كل ما نسب إلى القلوب أو إلى الصدور في كـتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهى من أعمال القلوب ، وهى أحياناً لا تنسب إلى القلب أو إلى الـصدر ولكـن هـى محـلُ ذلـك ، كالتوكل مثلاً ، فهو من أعظم أعمال القلب ؛ لأن التوكل يدخل في الاستعانة ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الفاتحة التي هى أم القرآن والسبع المثانى يقـول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[١] ، وكـل الدين داخل في هذه الآية وهذه ، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[٢] ، فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[٣] هى ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾[٤] و ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٥] هي ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[٦] .

فهـناك أمـران: أن يكـون الله تـبارك وتعـالى وحده هو المعبود والغاية وهو المراد الذي نـسعى إلـيه ، وأن يكون هو المستعان به وحده على تحقيق هذه الغاية ، والمتوكل عليه وحده في أمورنا وحدها ، فأعمال القلوب كثيرة نستطيع أن نستخلصها من كتاب الله .

أولاً: التوكل لغة:

يقـال: تـوكل بالأمر إذا ضمن القيام به ، ووكلت أمري إلى فلان: أي ألجأته واعتمدت عليه فيه .

ووكـل فـلان فلانـاً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته ، أو عجز عن القيام بأمر نفسه وأصله الوكول [٧] .

---

(١) الفاتحة: ٥ .
(٢) الملك: ٢٩ .
(٣) الفاتحة: ٥ .
(٤) الملك٢٩ .
(٥) الفاتحة: ٥ .
(٦) الملك: ٢٩ .
(٧) فتح الباري ١١/ ٣٠٥ .

ويقال: فلان وكلة تُكلَة ، أي عاجز يكل أمره إلى غيره ويتكل عليه وواكلت الدابة إذا أساءت السير .

والوكيل في لغة العرب: هو المسند إليه القيام بأمر من أسند إليه القيام بأمره [١] .

وفرس واكل يتكل على صاحبه في العدو ويحتاج إلى الضرب[٢] .

قال الأزهري: الوكيل في صفة الله جل وعز: الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق [٣] .

ثانياً: حقيقة التوكل:

ذكر ابن القيم – رحمه الله –: أن التوكل يجمع أصلين علم القلب وعمله فقال: "التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله:

أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله ، وكمال قيامه بما وكله إيه ، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك .

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله وطمأنينته إيه ، وتفويضه وتسليمه أمره إليه ، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه .

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل ، وهما جماعه ، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه ، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب ولكن لابد فيه من العلم ، وهو إما شرط فيه ، وإما جزء من ماهيته .

والمقصود: أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه"[٤] .

التوكل على الله نوعان:

١- توكل عليه في تحصيل حظ العبد من الرزق والعافية وغيرهما .

٢- توكل عليه في تحصيل مرضاته .

فأما النوع الأول: فغايته المطلوبة وإن لم تكن عبادة لأنها محض حظ العبد ، فالتوكل

---

(١) تفسير ابن جرير ٧/ ٤٠٥ .

(٢) الصحاح (٥/ ١٨٤٤ ، ١٨٤٥) .

(٣) تهذيب اللغة (١٠/ ٣٧١) .

(٤) طريق الهجرتين ، ص٢٥٧ .

على الله في حصوله عبادة ، فهو منشأ لمصلحة دينه ودنياه .

وأما النوع الثاني: فغايته عبادة ، وهو في نفسه عبادة ، فلا علة فيه بوجه ، فإنه استعانة بالله على ما يرضيه ، فصاحبه متحقق بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1] .

هذه أقسام التوكل على الله ، أما التوكل على غير الله فهو قسمان أيضاً:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من النصر والحفظ ، والرزق ، والشفاعة ، فهذا شرك أكبر .

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة العادية ، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ، ونحو ذلك ، فهذا نوع شرك خفي .

ثم إن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته ، فإنه يُخذل من تلك الجهة ، فما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ، ولا استنصر بغير الله إلا خذل ، قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً * كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾[2] .

ذكر ابن القيم – رحمه الله – للتوكل ثماني درجات:

الدرجة الأولى: معرفة الرب وصفاته ، من قدرته وكفايته وقيوميته ، وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته .

وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل .

قال ابن القيم رحمه الله -: ولذلك لا يصح التوكل ولا يُتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء ، ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات .

فأي توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم: سفلية وعلوية ، ولا هو فاعل

---

(١) طريق الهجرتين ، ص٢٦٢ .

(٢) سورة مريم ، الآيتين (٨١ ، ٨٢) .

باختياره ، ولا له إرادة ومشيئة ولا يقوم به صفة؟! فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف كان توكله أصح وأقوى . والله سبحانه وتعالى أعلم"[1] .

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات ، فإن من نفاها فتوكله مدخول ، وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل ، وأن نفيها تمام التوكل .

فليُعلم: أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة ؛ لأن التوكل أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه ، فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به .

فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سبباً ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شيء ، فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله ، إن كان قد قُدّر حصل ، توكل أو لم يتوكل ، دعا أو لم يدع ، وإن لم يقدر لم يحصل توكل أيضاً أو ترك التوكل .

فالله سبحانه قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء ، فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب ، وقضى الله بحصوله إذا فعل العبد سببه ، فإذا لم يأت السبب امتنع المسبب ، وهذا كما قضى بحصول الشبع إذا أكل والري إذا شرب ، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو .

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل: فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح توحيده ، بل حقيقة التوكل توحيد القلب ، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل .

فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه ، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ، ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب .

وهذا حق ، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح ، فالتوكل لا يتم إلا برفض

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٢ ، ١٢٣) .

الأسباب عن القلب وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعاً منها متصلاً بها، والله سبحانه أعلم"[١].

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه: بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه، ويلبسه السكون إلى مسببها، وعلامة هذا: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره؛ لأن اعتماده على الله وسكونه إليه واستناده إليه قد حصنه من خوفها ورجائها فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به، فرأى حصناً مفتوحاً فأدخله ربه إليه، وأغلق عليه باب الحصن، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له.

وكذلك من أعطاه ملك درهماً فسُرق منه، فقال له الملك: عندي أضعافه فلا تهتم، متى جئت إليَّ أعطيتك من خزائني أضعافه، فإذا علم صحة قول الملك ووثق به واطمأن إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك؛ لم يحزن على فوته. وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره، وليس في قلبه التفات إلى غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل، لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه"[٢].

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل: فعلى قدر حسن ظن العبد بربه ورجائه له، يكون توكله عليه؛ ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله. والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه[٣]. فإذا تيقن العبد أن الله يؤيده ويعينه ويسدده توكل عليه ورجاه.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته. وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير، يعني: الاستسلام لتدبير الرب لك، وهذا

---

(١) المدارج (٢/ ١٢٥، ١٢٦).
(٢) المدارج (٢/ ١٢٥، ١٢٦).
(٣) المدارج (٢/ ١٢٦).

في غير باب الأمر والنهي ، بل فيما يفعله بك لا فيما أمرك بفعله[١] .

الدرجة السابعة: التفويض: وهو روح التوكل ولبه وحقيقته ، وهو إلقاء أموره كلها ، وإنزالها به طلباً واختياراً لا كرهاً واضطراراً ، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمام كفايته وحسن ولايته له وتدبيره له ، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه ، وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها .

فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه ، وراحته من حمل كلفها ، وثقل حملها مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها ، وعلمه بكمال علم من فوض إليه ، وقدرته ، وشفقته" [٢] .

الدرجة الثامنة: درجة الرضا: وهي ثمرة التوكل ، ومن فسر التوكل بها فإنما فسره بأجل ثمراته وأعظم فوائده ، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله .

وكان شيخ الإسلام – رحمه الله – يقول: "المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله والرضا بعده ، فمن توكل على الله قبل الفعل ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية أو معناه" اهـ .

وباستكمال هذه الدرجات الثمان استكمل العبد مقام التوكل ، وثبتت قدمه فيه . وهذا معنى قول بشر الحافي [٣]: يقول أحدهم: توكلت على الله ، يكذب على الله ، لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به"[٤] .

"التوكل مصاحب للصادق من أول قدم يضعه في الطريق إلى نهايته ، وكلما ازداد قربه

---

(١) المدارج ٢/ ١٢٦ .

(٢) المدارج ٢/ ١٢٧ .

(٣) هو بشر بن الحارث بن عبدالرحمن بن عطاء الحافي ، كنيته أبو نصر ، أصله من مرو سكن بغداد ومات بها ، صحب الفضيل بن عياض ، وكان عالماً ورعاً ، مات سنة ٢٢٧هـ . من أقواله: أنا أكره الموت ، ولا يكره الموت إلا مريب ، انظر ترجمته في طبقات الصوفية/ للسلمي ١/ ٣٩ – ٤٧ .

(٤) المدارج (٢/ ١٢٧ – ١٢٨) .

به وقوي سيره ازداد توكله .

فالتوكل مركب السائر الذي لا يتأتى له السير إلا به ، ومتى نزل عنه انقطع لوقته ، وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته .

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١] . ففي الآية جعل التوكل شرطاً في الإيمان ، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل"[٢] .

(فالتوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى ، لأنه من أفضل العبادات وأعلى مقامات التوحيد ، فلا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين)[٣] .

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٤] ، فذكر اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل ، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه ، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولابد .

والله تعالى يجمع بين التوكل والإيمان ، وبين التوكل والإسلام ، وبين التوكل والتقوى ، وبين التوكل والعبادة ، وبين التوكل والهداية:

١- أما الجمع بين التوكل والإيمان ، ففي مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾[٥] .

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٦] وفي هذه الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة ، وعلى أنه فرض وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شرك .

٢- وأما الجمع بين التوكل والإسلام ، ففي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٢٣) .
(٢) طريق الهجرتين ، ص٢٥٨ .
(٣) تيسير العزيز الحميد ص٤٩٥ ، ٤٩٦ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية (١٢٢) .
(٥) سورة الملك ، الآية (٢٩) .
(٦) سورة المائدة ، الآية (٢٣) .

كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾[١] .

٣- وأما الجمع بين التوكل والتقوى ، ففي مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّه وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾[٢] .

٤- وأما الجمع بين التوكل والعبادة ، فقد جمع الله سبحانه بينهما في سبعة مواضع من كتابه:

أحدها: في سورة أم القرآن: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٣] .

الثاني: حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[٤] .

الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[٥] .

الرابع: قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾[٦] .

الخامس: قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٧] .

السادس: ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ

---

(١) سورة يونس ، الآية (٨٤) .
(٢) سورة الأحزاب ، الآيات (١ - ٣) .
(٣) سورة الفاتحة ، الآية (٤) .
(٤) سورة هود ، الآية(٨٨) .
(٥) سورة الممتحنة ، الآية (٤) .
(٦) سورة المزمل ، الآية (٨ ، ٩) .
(٧) سورة هود ، الآية (١٢٣) .

obeikan.com

الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾[١] .

السابع: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِله إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[٢] .

فهذه المواضع السبعة جمعت الأصلين: التوكل: وهو الوسيلة ، والإنابة وهي: الغاية . فأشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها: عبادة ربه والإنابة إليه . وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة: التوكل على الله والاستعانة به ، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة ، فهذه أشرف الغايات ، وتلك أشرف الوسائل .

٥- وأما الجمع بين التوكل والهداية ففي مثل قول الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾[٤] .

فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله والاكتفاء به والإيواء إلى ركنه الشديد ، فإن الله هو الحق ، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده ، وكافي من قام به .

والتوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام ، وإن منزلته منها منزلة الرأس من الجسد ، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن ، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل . والله أعلم"[٥] .

و عن سعيد بن جبير قال: "التوكل على الله جِماع الإيمان"[٦] .

وسمى الله عز وجل النبي ﷺ (المتوكل) كما في صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: "قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ : محمد رسول الله ، سميته المتوكل ،

---

(١) سورة الحج ، الآية (٧٨) .
(٢) سورة الرعد ، الآية (٣٠) .
(٣) سورة إبراهيم ، الآية (١٢) .
(٤) سورة النمل ، الآية (٧٩) .
(٥) طريق الهجرتين (ص٢٥٥ - ٢٥٨) مع اختصار يسير .
(٦) هو هنّاد بن السري بن مصعب الكوفي ، مصنف كتاب الزهد وغيره . ولد سنة ١٥٢هـ ، حدَّث عنه الجماعة ، لكن البخاري في غير (صحيحه) اتفاقاً لا اجتناباً ، كان يقال له: راهب الكوفة . مات - رحمه الله - سنة ٢٤٣هـ ، انظر السير ١١/ ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق".

وفي رواية "أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ . . ."[١].

وأخبر عن رسله: بأن حولهم كان التوكل، وبه انتصروا على قومهم، وأخبر النبي ﷺ عن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب: أنهم أهل مقام التوكل[٢].

وقفه عند الآيتين:

١- ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[٣].

٢- ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُه ﴾[٤].

وقفات:

١- ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾.

قال ابن جرير - رحمه الله -: "الذين" في موضع خفض مردود على "المؤمنين" وهذه الصفة من صفات الذين استجابوا لله والرسول و"الناس" الأول: هم قوم . . . كان أبو سفيان سألهم أن يثبطوا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين خرجوا في طلبه بعد منصرفه عن أحد إلى حمراء الأسد.

و"الناس" الثاني، هم أبو سفيان وأصحابه من قريش، الذين كانوا معه بأحد.

ويعني بقوله: "قد جمعوا لكم" قد جمعوا الرجال للقائكم، والكرة إليكم لحربكم.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق (٤/ ٣٤٢، ٣٤٣) عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة. " الحديث. ورواه أيضاً في كتاب التفسير، تفسير سورة الفتح، باب: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً (٨/ ٥٨٥) عن عبدالله بن عمرو.

(٢) المدارج (٢/ ١٤٤).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٧٣).

(٤) سورة الطلاق، الآية (٣).

﴿ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ فاحذروهم واتقوا لقاءهم فإنه لا طاقة لكم بهم: ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً ﴾ فزادهم ذلك من تخويف من خوفهم، أمر أبي سفيان وأصحابه من المشركين، يقيناً إلى يقينهم، وتصديقاً لله ولوعده ووعد رسوله إلى تصديقهم، ولم يثنهم ذلك عن وجههم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالسير فيه، ولكن ساروا حتى بلغوا رضوان الله منه، وقالوا ثقة بالله وتوكلاً عليه إذ خوفهم من خوفهم أبا سفيان وأصحابه المشركين.

﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ أي كفانا الله: يعني: يكفينا الله كقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾، ﴿ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ نعم المولى لمن وليه وكفله[1].

فازدادوا إيماناً بتوكلهم على ربهم وثقتهم به وبما عنده من النصر والتأييد عند تخويف الناس لهم بجمع الناس للقائهم والكرة عليهم لحربهم. ومع هذا العمل الإيماني القلبي قالوا: "حسبنا الله ونعم الوكيل" ولم يلتفتوا إلى تخويف من خوفهم. وروى البخاري بسنده عن ابن عباس ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: "إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾[2].

ثبت في الصحيح حديث ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام قال: "حسبي الله ونعم الوكيل" قال ابن عباس: قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين "قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم".

وقد روي أن جبريل قال: هل لك حاجة؟ قال: "أما إليك فلا" وقد ذكر هذا الإمام أحمد وغيره.

٢- ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾.

"حسبه": أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ١١٨).

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب "الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم" (٨/ ٢٢٩) عن ابن عباس.

لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش .

وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً ، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذي يشتفي به منه .

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته ، فقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[١] ولم يقل: فله كذا وكذا من الأجر ، كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله ، وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً وكفاه ونصره[٢] .

قال الربيع بن خثيم: إن الله تعالى قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه ، ومن آمن به هداه ، ومن أقرضه جازاه ، ومن وثق به نجاه ، ومن دعاه أجاب له .

وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[٣] ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[٤] ، ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُم ﴾[٥] .

﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٦] ﴿ وإذا سألكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[٧] .

وقد قرأ النبي ﷺ هذه الآية على أبي ذر ، وقال له: "لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم" يعني لو حققوا التقوى والتوكل لاكتفوا بذلك في مصالح دينهم ودنياهم .

تعلق التوكل بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى:

---

(١) سورة الطلاق ، الآية (٣) .
(٢) تيسير العزيز الحميد ص٥٠١ .
(٣) سورة التغابن ، الآية (١١) .
(٤) سورة الطلاق ، الآية (٣) .
(٥) سورة التغابن ، الآية (١٧) .
(٦) سورة آل عمران ، الآية (١٠١) .
(٧) سورة البقرة ، الآية (١٨٦) ، انظر تفسير الطبري - المجلد التاسع ح١٨/ ١٦٢ .

التوكل من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى والصفات العُلى:

فله تعلق باسم (الغفار ، التواب ، العفو ، الرؤوف ، الرحيم ، الفتاح ، الوهاب ، الرازق ، المعطي ، المحسن ، المعز ، المذل ، الحافظ ، الرافع ، المانع) .

وله تعلق بالقدرة والإرادة ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله ، فبحسب معرفة العبد لربه يصح له مقام التوكل ، وكلما كان بالله أعرف ، كان توكله عليه أقوى[١] .

قدر الله سبحانه لكمال علمه وحكمته ربط الأسباب بالمسببات ، فقد جعل سبحانه لكل شيء سبباً ، في أمور الدنيا والآخرة في العبادات والعادات ، وندب خلقه إلى مباشرتها ، فشمر أهله وخاصته إلى إجابته في كلا الأمرين .

وهذا هو عمل الأنبياء وأتباعهم الصادقين في طاعتهم وانقيادهم الواقفين مع أوامره أنى استقلت ركائبها جالبة ما جلبت ، مقتضية ما اقتضت ، جمعتهم أو فرقتهم .

لكن الصوفية لبَّس عليهم إبليس - عليه لعنة الله - فابتدعوا في دين الله ما ليس منه ، وعطلوا من دينه الكثير ، فلا أسباب عندهم لا دين ولا دنيا .

وظنوا أن مباشرة الأسباب المباحة قدح في التوكل ، وادعوا أن أهل (الأحوال) لا يباشرون الأسباب ثقة بالله واعتماداً على خوارق العادات .

ولا شك أنهم حادوا عن الجادة والصراط المستقيم ، فقد دل النقل والعقل على وجوب التوكل مع ملابسة الأسباب ، أما المنقول: "فإنه قد ظاهر النبي ﷺ في الحرب بين درعين ، ولبس على رأسه المغفر ، وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة وهاجر هو ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك"[٢] .

وكان ادخاره قوت سنة لعياله في آخر عمره وأكمل أحواله مع ربه تعالى ، وكان يطوف على القبائل في بداية الدعوة ويقول: من يعصمني حتى أبلغ رسالة ربي . وهو سيد

---

(١) المدارج (٢/ ١٣٠) بتصرف .
(٢) فتح الباري (١٠/ ٢١٢) .

المتوكلين[١] .

والصحابة رضي الله عنهم أجمعين قد حازوا هذه المرتبة واستيقنوها حالاً وعلماً، وعلى نهجهم سار السلف الصالح فقد كان عبدالله بن المبارك - رحمه الله - على زهده تاجراً تأتيه البضائع من خراسان إلى البيت الحرام. روى البيهقي بسنده إلى الفضيل بن عياض أنه قال لابن المبارك: أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام؟ كيف ذا وأنت تأمرنا بخلاف ذا؟ فقال ابن المبارك: يا أبا علي، أنا أفعل ذا لأصون بها وجهي وأكرم بها عرضي، واستعين بها على طاعة ربي، لا أرى لله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به، فقال له الفضيل: يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا[٢] وقد رغب النبي ﷺ أمته في الكسب وبيَّن لهم أنه من تمام التوكل. عن عمر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا**»[٣] .

قال البيهقي في شعب الإيمان: ليس في هذا الحديث دلالة على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدل على طلب الرزق، لأن الطير إذا غدت فإنها تغدو وتطلب الرزق، وإنما أراد - والله أعلم - لو توكلوا على الله تعالى في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم، ورأوا أن الخير بيده ومن عنده لم ينصرفوا إلا سالمين قائمين كالطير تغدو خماصا وتروح بطاناً، لكنهم يعتمدون على قوتهم وجلدهم، ويغشون ويكذبون ولا ينصحون، وهذا خلاف التوكل[٤] .

فالتوكل ليس التبطل والتعطل، بل لابد فيه من التوصل بنوع من السبب لأن الطير ترزق بالسعي والطلب، "فمن ظن أن التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة فهو جاهل، فإن ذلك حرام في الشرع، والشرع قد

---

(١) الفروق للقرافي ٤/ ٢٢٢ .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٩٥ رقم ١٢٦٦) باب التوكل والتسليم .

(٣) رواه الترمذي ٤/ ٥٧٢، رقم الحديث ٢٣٤٣، وقال حسن صحيح، وأحمد ١/ ٣٠، وابن ماجه ٢/ ١٣٩٤، رقم الحديث ٤١٦٤، كتاب الزهد، باب التوكل والتعين، وابن المبارك ص١٩٦، ١٩٧ رقم الحديث ٥٥٩، وابن أبي الدنيا ص٥٢ - ٥٣ وإسناده حسن، وانظر صحيح الجامع الصغير ٢/ ٩٧٢ .

(٤) دليل الفالحين ١/ ٢٧٢ .

أثنى على المتوكلين ، فكيف يُنال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين؟!

وإنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده .

وسعى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به: كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوي من المرض .

روى الترمذي وغيره عن أنس بن مالك قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أم أطلقها وأتوكل ؟ قال: «**اعقلها وتوكل**»[١] .

وقال الإمام أبو القاسم القشيري: "اعلم أن التوكل محله القلب ، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافي التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد أن الثقة من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شيء فبتقديره وإن تيسر فبتيسيره[٢] .

فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة ، والتوكل عليه إيمان به[٣] .

هذا في الأسباب المباحة والاكتساب ، كذلك أمور الآخرة وهي الطاعات التي أمر الله عباده بها وجعلها سبباً للنجاة من النار ودخول الجنة فهذا لابد من فعله مع التوكل على الله فيه والاستعانة به عليه فإنه لا حول ولا قوة إلا به ، فمن قصر في شيء من ذلك استحق العقوبة في الدنيا والآخرة شرعاً وقدراً .

قال يوسف بن أسباط: يقال: اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله ، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب له[٤] .

---

(١) رواه الترمذي في سننه لـه ٤/ ٦٦٨ ، رقم الحديث ٢٥١٧ ، قال الألباني: حسن . انظر صحيح الجامع ١/ ٢٤٢ ، رقم الحديث ١٠٦٨ ، وابن أبي الدنيا في كتابه "التوكل" بسند حسن ص٦١ ، ٦٢ .

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم ٣/ ٩١ .

(٣) جامع العلوم والحكم ص٤٠٩ .

(٤) جامع العلوم والحكم ص٤٠٩ .

الالتفات إلى الأسباب:

قال بعض أهل العلم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب - أن تكون أسباباً - تغيير في وجه العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع[١].

قال: «**ما من داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام**»[٢].

وعند الترمذي: «**يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء...**».

وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئاً قال: «**هي من قدر الله**»[٣].

وأما أمره فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي وبالحمية وقطع لسعد بن معاذ عرقاً. "أي فصده"، وكوى سعد بن زرارة.

(وهو كدفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً)[٤].

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**عرضت علي الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد، حتى رفع لي سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: بل هذا موسى وقومه، قيل: انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق، ثم قيل لي: انظر ههنا وههنا - في آفاق السماء - فإذا**

---

(١) الإعراض عن الأسباب قدح في الشرع: حيث إن الأسباب مأمور بها شرعاً والقدح فيها والإعراض عنها إعراض عن الشرع وقدح في كماله وصلاحه.

(٢) رواه البخاري كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء من حديث أبي هريرة ولفظه: "ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء" انظر الصحيح مع الفتح (١٠/ ١٣٤)، ومسلم في الطب والمرض والرقى، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة من حديث جابر ولفظه: "لكل داء دواء. انظر الصحيح مع شرح النووي (١٤/ ١٩٠، ١٩١)، والترمذي في أبواب الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه من حديث أسامة بن شريك (٤/ ٣٨٣، رقم الحديث ٢٠٣٨ "إلا الهرم")، وابن ماجه مختصراً دون قوله "عرفه." إسناده حسن أبواب الطب باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٢/ ١١٣٧) عن أبي هريرة وأسامة بن شريك.

(٣) أخرجه الترمذي أبواب الطب، باب ما جاء في الرقي والأدوية (٤/ ٣٩٩ - ٤٠٠)، وابن ماجه في أبواب الطب الباب السابق كلاهما من حديث أبي خزامة (٢/ ١١٣٧)، وقيل عن أبي خزامة عن أبيه، قال الترمذي: وهذا أصبح.

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٥).

سواد قد ملأ الأفق، وقيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب»، ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم وقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام، فإنا وُلدنا في الجاهلية، فبلغ النبي ﷺ فخرج فقال: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون**».

فقال عكاشة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»، فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ قال: «**سبقك بها عكاشة**»[(١)].

وفي رواية: «**عرضت علي الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: أُدعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «**اللهم اجعله منهم**»، ثم قام إليه رجل آخر فقال: أُدع الله... [(٢)] إلى آخر الحديث.

وفي رواية: قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون**» [(٣)].

وفي رواية: «**هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون**»[(٤)].

وفي رواية: «**هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم**

---

(١) رواه البخاري كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو من حديث ابن عباس. انظر الصحيح مع الفتح (١٠/ ١٥٥).

(٢) هذه الرواية عند البخاري كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (١١/ ٤٠٥).

(٣) انظر الصحيح مع شرح النووي كتاب الإيمان، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٣/ ٨٨).

(٤) المصدر السابق والكتاب والباب (٣/ ٩٢) عن عمران.

يتوكلون»[١] .

قال شيخ الإسلام: هذه الزيادة وهم من الراوي ، لم يقل النبي ﷺ : «**لا يرقون**» لأن الراقي محسن إلى أخيه ، وقد قال ﷺ حين سئل عن الرقى: "من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه"[٢] وقال ﷺ : «**لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً**»[٣] .

وأيضاً فقد رقى جبريل النبي[٤] .

قال: والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه ، والراقي محسن ، وإنما وصفت السبعين ألفاً بتمام التوكل ، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم ولا يتطيرون .

روى البخاري بسنده عن جابر عن النبي ﷺ قال: «**إن كان في شيء من أدويتكم شفاء ففي شرطة محجم، أو لذعة بنار، وما أحب أن أكتوي**»[٥] .

قال ابن حجر: كأنه أراد أن الكي جائز للحاجة ، وأن الأولى تركه إذا لم يتعين ، وأنه إذا جاز كان أعم من أن يباشر الشخص ذلك بنفسه أو بغيره لنفسه أو لغيره . وعدم الجواز مأخوذ من نسبة الشفاء إليه .

وفضل تركه من قوله: «**وما أحب أن أكتوي**» .

قات ابن القيم - رحمه الله تعالى - جمعاً أرى أنه لزاماً عليَّ ذكره: يقول - رحمه الله -: النهي عن الكي أن يكتوي طلباً للشفاء ، وكانوا يعتقدون أنه متى لم يكتو هلك فنهاهم عنه

---

(١) المصدر السابق والكتاب والباب (٣/ ٩٤) عن ابن عباس .

(٢) رواه مسلم في صحيحه في الطب والمرض والرق باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة (١٤/ ١٨٦) عن جابر قال: لدغت رجلاً منا عقرب ونحن جلوس مع رسول الله ﷺ فقال رجل: يا رسول الله أرقى قال: "من استطاع منكم أن ينفع أخاه فيفعل" وفي رواية: "فلينفعه" عن جابر أيضاً ، ورواه أحمد (٣/ ٣٠٢) .

(٣) رواه أبو داود بهذا اللفظ كتاب الطب ، باب ما جاء في الرقى عن عوف بن مالك (٤/ ١٠ ، ١١ رقم ٣٨٨٦) .

(٤) مما ثبت في ذلك ما رواه مسلم في الطب والمرض والرقى (١٤/ ١٧٠) عن أبي سعيد أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم .

(٥) رواه البخاري بسنده عن جابر .

لأجل هذه النية .

و ثبت أنه أمر بالاسترقاء: وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لجارية في بيتها رأى في وجهها سفعة - يعني صفرة - فقال: «**بها نظرة فاسترقوا لها**»(١) .

وعن عائشة قالت: أمرني رسول الله ﷺ أن أسترقي من العين(٢) .

مسألة:

هل السبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أفضل من غيرهم مطلقاً؟

"قال القرطبي: الرقى بأسماء الله تعالى تقتضي التوكل عليه والالتجاء إليه والرغبة فيما عنده والتبرك بأسمائه ، فلو كان ذلك قادحاً في التوكل لقدح الدعاء ، إذ لا فرق بين الذكر والدعاء ، وقد رقى النبي ﷺ ورقي وفعله السلف والخلف ، فلو كان مانعاً من اللحاق بالسبعين أو قادحاً في التوكل لم يقع من هؤلاء ، وفيهم من هو أعلم وأفضل مما عداهم .

وتُعقب: بأنه بنى كلامه على أن السبعين المذكورين أرفع رتبة من غيرهم مطلقاً وليس كذلك .

ومن حديث رفاعة الجهني عن النبي ﷺ : «**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب، وإني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوؤوا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة**»(٣) .

فهذا يدل على: أن مزية السبعين بالدخول بغير حساب لا يستلزم أنهم أفضل من غيرهم بل فيمن يحاسب في الجملة من يكون أفضل منهم" .

كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير ، فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر ، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع ، وربما كان أحدهم يهيج الطير فيعتمدها ، فجاء الشرع بالنهي عن ذلك .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه أحمد وابن خزيمة في صحيحه وابن حبان .

و عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لا عدوى ولا طيرة، والشؤم في ثلاث...**»[١].

وكانوا يسمون الطير السانح والبارح، فالسانح ما ولاك ميامنه بأن يمر عن يسارك إلى يمينك.

والبارح: بالعكس وكانوا يتيمنون بالسانح ويتشائمون بالبارح.

قال: الحافظ ابن حجر: وليس في شيء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضي ما اعتقدوه، وإنما هو تكلف بتعاطي ما لا أصل له.

إذ لا نطق للطير ولا تمييز، فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله.

وكان أكثرهم يتطيرون ويعتمدون على ذلك ويصح معهم غالباً لتزيين الشيطان ذلك، وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين[٢] اهـ كلام ابن حجر.

فبعضهم إذا حصل له في يومه ما يكرهه قال: تصبحت بوجه من هذا اليوم؟ تشاؤماً.

ومن الأسباب التي توجب وقوع المكروه الطيرة، والطيرة على من تطير ولكن نصب الله سبحانه لها أسباباً يدفع بها موجبها وضررها من التوكل عليه وحسن الظن به وإعراض قلبه عن الطيرة وعدم التفاته إليها وخوفه منها وثقته بالله عز وجل.

ولسنا ننكر أن هذه الأمور ظنون وتخمين وحدس وخرص، ومن كان هذا سبيله فيصيب تارة ويخطئ تارات، وليس كل ما تطير به المتطيرون وما تشاءموا به وقع جميعه وصدق، بل أكثره كاذب وصادقه نادر.

والناس في هذا المقام إنما يقولون وينقلون ما صح ووقع ويعتنون به فيرى كثيراً، والكاذب فيه أكثر من أن ينقل.

---

(١) رواه البخاري بسنده عن ابن عمر.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري.

obeikandl.com

يقول ابن قتيبة: "من شأن النفوس حفظ الصواب للعجب والاستغراب وتناسي الخطأ، ومن ذا الذي يتحدث أنه سأل منجماً فأخطأ وإنما الذي يتحدث به وينقل أنه سأل فأصاب".

وقد كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تستحب أن تتزوج المرأة أو يبنى بها في شوال، وتقول: "تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده مني" وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال مع تطير الناس بالنكاح في شوال، وهذا فعل أولي العزم والقوة من المؤمنين الذين صح توكلهم على الله، واطمأنت قلوبهم إلى ربهم، ووثقوا به، وعلموا أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنهم لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، وأنهم ما أصابهم من مصيبة إلا وهي في كتاب من قبل أن يخلقهم ويوجدهم، وأن تطيرهم لا يرد قضاءه وقدره عنهم، بل قد يكون تطيرهم من أعظم الأسباب التي يجري عليهم بها القضاء والقدر، فيعينون على أنفسهم، وقد جرى لهم القضاء والقدر بأن نفوسهم هي سبب إصابة المكروه لهم فطائرهم معهم.

أما المتوكلون على الله المفوضون إليه، العالمون بأمره فنفوسهم أشرف من ذلك وهمهم أعلى وثقتهم بالله وحسن ظنهم به عدة لهم وجنة مما يتطير به المتطيرون، ويتشائم به المتشائمون، عالمون أنه لا طير إلا طيره ولا خير إلا خيره ولا إله غيره لا شك أن الطيرة شرك يقدح في التوحيد، وينافي كماله الواجب لمنافاتها التوكل على الله الواجب.

ولا علاج لمن وجدها في نفسه إلا بالتوكل على الله عز وجل والإعراض عنها، فقد شفى النبي ﷺ أمته في الطيرة فيما ثبت عنه، فعن ابن مسعود: "الطيرة شرك وما منا إلا تطير ولكن الله يذهبه بالتوكل قوله: (وما منا إلا) من كلام ابن مسعود أدرج في الخبر، وإنما جعل ذلك شركاً لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضراً، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى.

وقوله: "ولكن الله يذهبه بالتوكل" إشارة إلى من وقع له ذلك فسلم الله ولم يعبأ بالطير، أنه لا يؤاخذ بما عرض له من ذلك.

واعلم: أن التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف، وأما من لم يبال به ولم يعبأ به شيئاً لم

يضره البتة .

ومن كان معتنياً بها قائلاً بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويُعطاه ، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه ، وينكد عليه عيشه .

كفارتها:

ومن حديث ابن عمرو: "من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك" قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: "أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك" [(١)] .

أما قوله في الحديث: «**وعلى ربهم يتوكلون**» فهو ذكر للأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال وهو التوكل على الله وصدق الالتجاء إليه ، والاعتماد بالقلب عليه الذي هو خلاصة التفريد .

ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء والرضا به رباً وإلهاً والرضا بقضائه بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء وعده من النعماء[(٢)] .

فوائد التوكل:

١- النصر على الأعداء: ﴿ **وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ** ﴾ ، ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً** ﴾ . .

٢- يجلب المصالح ويدفع المضار والمصائب ويجلب الرزق ويعجل الشفاء . .

٣- التوكل على الله سبب لقوة القلب ونشاطه . .

٤- وقاية من الانهيارات النفسية والعصبية . .

٥- يباعد بين الإنسان والانتحار وما يفعله هؤلاء الذين عدموا التوكل فيئسوا وأصيبوا

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) التوكل على الله . حقيقته وفضله ، وهل ينافي العمل؟ / منيرة بنت حمود البدراني/ بتصرف .

بالإحباط فلم يبق لهم في الدنيا مكان في نظرهم . .

٦- سبب للحفظ في النفس والمال والولد والأهل ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يعقوب قالها لبنيه . .! ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ، وقال: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ . وعندما يخرج الإنسان من بيته يقول: «**بسم الله توكلت على الله**» فماذا يحدث له؟!! . . يقول له ملك: «**هُدِيت، وُقِيت، كُفيت من كل شر**» .

٧- التوكل على الله يبعث في القلب الحماس والعزيمة للعمل لأنه فيه فتح لباب الأخذ في الأسباب والأسباب المشروعة ، لما يفهم المرء التوكل فهماً صحيحاً ينطلق للعمل ويأخذ بالأسباب ، وهذا فيه انتاجية وفيه ثمار تحدث .

٨- والتوكل على الله يرفع الروح المعنوية حتى لو أصاب الإنسان مصائب وشدائد ، ففي الجراحات والقتل الذي أصابهم مصيبة فوقها يأتي خبر أن المشركين جمعوا عليكم ليعيدوا الكرة عليكم ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ .

٩- التوكل على الله يجلب الرزق كما يرزق الطير وقد تقدم الكلام في هذا .

١٠- التوكل على الله يحقق النتيجة فالطالب يريد النجاح والتاجر يريد الربح وطالب الوظيفة يريد التعيين في العمل وهكذا .

١١- من توكل على الله يشعر بمعية ربه له أنه معه ناصره مغنيه كافيه واقيه .

١٢- التوكل على الله يجلب محبة الرب للعبد ، وكذلك العبد يحب الرب نتيجة التوكل ، لأنه يرى آثارتوكله على ربه وكيف أن الله يعطيه على نيته وتوكله عليه فيحب ربه .

١٣- التوكل من حققه دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب وهذا أعظم ثمرات التوكل كما

جاء في حديث السبعين ألف .

١٤- التوكل على الله عز وغنى .

قصص مع المتوكلين وعلى رأسهم الرسول ﷺ..

لما نزل مع أصحابه في واد فعلق سيفه في شجرة فتفرق الناس في الوادي يستظلون في الشجر فلم يرعهم إلا والنبي ﷺ يدعوهم فأتوه فإذا بشخص وسيف ساقط فقال الرسول إن رجلاً أتاني وأنا نائم فاتخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف صلفاً أي مسلولاً . . انتبه النبي والسيف فوق رأسه . . أين المهرب . .؟! . . فقال سن يمنعك مني . .؟!! قلت: الله . . هذه كلمة فيها التوكل والتفويض والاستعانة وكل شيء . . قال: فشام السيف أي أغمده . . وفي رواية سقط السيف من يده . . ، هاهوذا جالس . . كما في صحيح مسلم .

النبي ﷺ مع أبي بكر في الغار ، أبو بكر خائف على النبي أكثر من خوفه على نفسه يقول: (يارسول الله لو نظر أحدهم إلى ما بين قدميه لأبصرنا) مابيننا وبين الهلاك إلا نظرة تحت!! . . قال يا أبا بكر: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**..؟!!» ، هذا هو التوكل والتفويض يظهر فعلاً في أوقات الأزمات جلياً واضحاً . . أن هذا العبد قلبه مفتقر إلى الرب متوكل عليه مفوض أمره إليه خصوصاً إذا لم يكن هناك أسباب تتخذ إلا تفويض الأمر إلى الله .

وجاء الإنكار من ابن عباس رضي الله عنه على بعض أهل اليمن الذين يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس مدوا أيديهم . . فأنزل الله ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ .

وهناك قصة لطيفة لامرأة رواها الإمام أحمد رحمه الله تعالى يقول في الحديث عن النبي ﷺ : «**إن امرأة خرجت في سرية من المسلمين وتركت ثنتي عشرة عنزاً لها وصيصيتها"السيخ الذي ينسجون به الغزل" كانت تنسج بها، ففقدت عنزاً من غنمها وصيصيتها فقالت ياربي إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه وإني قد فقدت عنزاً وصيصيتي وإني أنشدك عنزي وصيصيتي، فجعل رسول الله يذكر**

شدة مناشدتها لربها سبحانه وتعالى وشدة توكلها على الله وخرجت في سبيل الله ومعتمدة أن الله يحفظ مالها ولما عادت لم تقول أن الله أخلف وعده ولكن نشدت ربها ماوعد به وأخذت تلح وتلح» . . . قال ﷺ : «**فأصبحت عنزها ومثلها وصيصيتها ومثلها**» . . رجع مضاعفاً . .!! نامت على الدعاء والتوكل ووجدته مضاعفاً من عند الله . .!!

و قال الإمام أحمد في مسنده حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عبدالحميد بن وهران

قال أبو هريرة: (بينما رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدران على شيء فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مسبغة شديدة فقال لامرأته أعندك شيء؟ . . لكن رأفة بحال الزوج أو رفع المعنويات وتسليته وما عندها شيء فلم تشأ أن تقول لزوجها راجع جائع جداً (لا) . . فالمرأة اشفاقاً على زوجها وثقة بالله قالت (نعم أبشر أتاك رزق الله) مع أنها ليس لديها شيء لكنها الثقة والاعتماد على الله ورجاء الله ، فاستحثها فقال ويحكِ ابتغي إن كان عندكِ شيء . .!! . . قالت: نعم هنيّة . . اصبر . . نرجوا رحمة الله . .! حتى إذا طال عليه الطوى وجاع زيادة فوق جوعه فقال (ويحكِ إن كان لديكِ خبز فأتيني به فإني قد بلغت وجهدت فقالت نعم الآن ينضج التنور) أوقدت الفرن والفرن ليس فيه شيء فلا تعجل فلما أن سكت عنها ساعة ، وتحينت أن يقول لها قالت هي من نفسها لو قمت فنظرت إلى تنوري مع الثقة بما عند الله . . فقامت فوجدت تنورها ملآن جنوب الغنم . . ورحيها تتطحنان . .!!! فقامت إلى الرحى فنفضتها وأخرجت مافي تنورها من جيوب الغنم . .!! قال أبو هريرة فوالذي نفس أبي القاسم بيده عن قول محمدﷺ : «**لو أخذت مافي رحيها ولم تنفضها لطحنتها إلى يوم القيامة**» . .!!

قد يقول بعض الناس ماذا نقول في قصة خالد بن الوليد لما شرب السم ، أو ما جاء عن عمر أنه أكل مع مجذوم .

قصة خالد مشهورة في كتب التاريخ ، أنهم حاصروا حصناً فقال الروم لا نسلّم (نستسلم) حتى تشرب السمّ . . ، وحكم شربه حرام لا يجوز (من تحسّى سمّاً فقتل نفسه

فسمّ تحسّاه في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً) ، خالد في وقت حرج ، استسلام هؤلاء يعني حماية المسلمين وإبعاد الأذى عنهم في الحرب والجراحات فيه مصلحة عظيمة ، والروم هؤلاء كأنهم يريدون شيء من الكرامات يستسلمون لهؤلاء - تحدّي - فأخذه خالد ثقة بالله وتوكلاً على الله وشرب ولم يضره وسلم الروم .

هذه حالة خاصة ونادرة لم يكن أخذه لها بسبب الانتحار وإنما وجد خالد مصلحة عظيمة للمسلمين ووجد في نفسه توكل على الله كبير وهذا شيء يشعر به ربما بعض أولياء الله في بعض الحالات . . ، لم يضره من التوكل . . ، ولكن هذا لا يقع مع أي أحد .

وكذلك تحمل قصة عمر رضي الله عنه لمن أراد الإثبات والبرهنة لمن يعتقد أن العدوى لابد أن تصيب فوجد في نفسه شدة وصحة توكل وقوة في القلب لإثبات للناس أنه لا عدوى ، ولكن هذه حالات خاصة تكون مع أولياء الله وليست القضية على إطلاقها فالأصل باقٍ على ما هو عليه .

الرجاء الذي هو ضد اليأس ، واليأس هو تذكر فوات رحمة الله وقطع القلب عن التماسها وهو معصية ﴿ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قالها يعقوب عليه السلام لأبنائه .

* * * * *

المبحث الثالث:

الخـوف

حلـول مكروه أو فوات محبوب ، اضطراب القلب وحركته أو فزعه من مكروه يناله أو محبوب يفوته .

قـال ابـن قدامة: اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال .

مـثال ذلـك: مـن جنـى علـى ملك جناية ثم وقع في يده فهو يخاف القتل ويجوّز العفو "احـتمالات" ولكـن يكـون تـألم قلـبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وتفاحش جنايته وتأثيرها عند الملك ، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف ، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية بل عن صفة الذي يُخاف عظمة وجلالاً فإنه إذا علم أن الله سبحانه وتعالى لـو أهلـك العـالمين لم يبالـي ولم يمنعه مانع فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه وبجلال الله وأنه لا يسأل عما يفعل يكون الخوف على حسب هذا فهو مطالعة القلوب لسطوات الله عز وجل ونقمه فيولد في القلب الخوف"خوف الوعيد" .

أدلة وجوب الخوف

١- ﴿ إِنَّمَـا ذَلِكُـمُ الـشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِـنِينَ ﴾ ، قـال ابن سعدي - رحمه الله -: في هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده وأنه من لوازم الإيمان فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفهم من الله .

﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ والأمر يقتضي الوجوب .

﴿ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ ، قال ابن سعدي: أمر الله بخشية الله التي هي رأس كل خير فمن لم يخشَ الله لم ينكفّ عن معصته ولم يمتثل أمره .

٢- إن الله امـتدح أهـل الخـوف ، فقـال: ﴿ الَّـذِينَ هُـم مِّـنْ خَـشْيَةِ رَبِّهِـم مُّشْفِقُونَ ﴾ ﴿ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ .

عن عائشة زوج النبي ﷺ : سألت النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم .

﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ﴾ قال الحسن: عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم . .

إن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً . .!

٣- والتخويف من عذاب الله أحد مهمات الرسل ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ والإنذار هو الإعلام بالشيء الذي يخيف ، فالإنذار في لغة العرب كما قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: الإنذار إخبار فيه تخويف كما أن التبشير إخبار فيه سرور .

وقد وصف الله تعالى رسوله محمد ﷺ بأنه نذير في مواضع كثيرة .

٤- جمع قومه على الصفا وقال إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد (أنا النذير العريان) ، وقد كان العرب إذا رأى أحدهم جيشاً يغير على قبيلته قد اقترب وهو في الخارج ولا تدري قبيلته جاء يركض ويخلع ثيابه وهو يصرخ حتى يبين لهم هول المصيبة التي ستنزل بهم وفداحة الخطر ، وهذه أشد أنواع النذارات عند العرب . ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ . ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ .

كان من أوائل أوامر الرسول ﷺ هو الإنذار ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ ، خوف الناس عذاب الله جهنم ، بأس الله وانتقامه . . ، قال القرطبي: خوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا .

وقد وصف الله العذاب في كتابه في عدة مواضع لتحقيق الخوف في نفوس عباده ليتقوه ، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ .

قال ابن كثير: ﴿ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوّف به عباده . قال: لينزجروا عن المحارم والمآثم . ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أي اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي .

وبين سبحانه أن مايرسله من الآيات لتصديق الأنبياء عليهم السلام كناقة صالح إنما يرسله من أجل التخويف ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾ .

كذلك الآيات الكونية كالخسوف والكسوف وغيرها .

وكذلك قال الله في البرق والرعد: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ .

الأسباب الجالبة للخوف

الخوف ليس مقصوداً لذاته بل لما بعده من فعل الواجبات وعدم تركها والبعد عن المحرمات وعدم ارتكابها وإذا زاد يمكن أن يكون فعل مستحبات وترك مشتبهات وإذا زاد أكثر يصبح مذموماً وإذا نقص عن هذا يكون أيضاً ناقصاً لا يؤدي إلى النتيجة المطلوبة ، فمن الأسباب الجالبة للخوف:

١- سابق الذّنب الذي وقع فيه .

٢- حذر التقصير في الواجبات .

٣- الخوف من المصير أن يكون على ما يكره .

٤- إجلال الله وتعظيمه ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ . والملائكة خوفهم من الله شديد جداً ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ ﴾ فالله إذا تكلم بالكلمة في السماء من أوامره ضربت الملائكة بأجنحتها خضوعاً لقوله ، فأصدرت صوتاً عظيماً كجرّ السلسلة العظيمة على الصخرة ثم يغشاهم من الفزع ما يغشاهم ورجعوا إلى حالة يستطيعون فيها الكلام قالوا ماذا قال ربكم تناقلت

الأوامر قالوا الحق ، فإذاً إجلال الله يقتضي الخوف والهيبة منه جل وعلا وهذه أهمية معرفة أسماء الله وصفاته .

٥- الخوف من الله يتعلق بقضيتين . .

أ - الخوف من عذابه . .

ب - الخوف من الله . .

الناس العامة ينزعون إلى الخوف من النار أكثر ، وأهل الفقه والعلم خوفهم من الله قبل خوفهم من ناره لأن العامة قد يكون فهمهم وعلمهم قليل وبساطة فأحياناً لا يتذكر من كل القضية إلا النار ، وقد لا يستوعب أن الخوف من الله قبل الخوف من ناره أول وأكبر وأعظم ولذلك قال ابن قدامة رحمه الله: (في مقامي الخوف المقام الأول الخوف من عذاب الله وهذا خوف عامة الناس وهذا النوع من الخوف يحصل بالإيمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، المقام الثاني الخوف من الله نفسه عزوجل وهو خوف العلماء والعارفين لأنه يكفيهم فقط ثلاث كلمات ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ، ولذلك قال النبيﷺ : «أنا أعرفهم بالله وأشدهم له خشية» ، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ لأنه لما كملت معرفتهم بربهم وأسمائه وصفاته أثرت الخوف ففاض الأثر على القلب ثم ظهر على الجوارح بهذه الأعمال .

٦- تتأمل النجاة لمن ، وتقارن نفسك بصفاتهم ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ . وكما في سورة العصر حيث أقسم الله أن الناس في خسران واستثنى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ . وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ . هذه الآية تورث الخوف حيث أقسم الله أنه ليملأ جهنم فينخلع القلب والله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً﴾ وقيل لفلان لم تبكي؟ قال لأني أعلم يقيناً أنني سآتي على جهنم ولكن ليس لدي يقين أنني سأنجو منها . .!! ، وفي مسألة قبول

العمل أيضاً والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ . فإذا حصل الخوف حصلت أسباب النجاة .

٧- تدبر كلام الله ورسوله والنظر في سيرته ، قال ابن القيم: (لأنه سيد الخائفين وإمام المتقين وأخشاهم لله فإذا تدبر المسلم كلام الله وسنة نبيه شهد قلبه أموراً من صفات الله وعقوباته وانتقامه وكيف خاف الأنبياء والملائكة والصالحون ، وليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع الفكر على معاني آيات الكتاب العزيز فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل وتحثه على التضمّر والتخفف للقاء اليوم الثقيل) . يقول ابن الجوزي: (والله لو أن مؤمناً عاقلاً قرأ سورة الحديد وآخر سورة الحشر وآية الكرسي وسورة الإخلاص بتفكر وتدبر لتصدّع قلبه من خشية الله وتحيّر من عظمة الله ربّه) .

٨- التفكر في عظمة الله سبحانه وتعالى ، فإنه من تفكر في ذلك خاف الله لا محالة لأن التفكر يوقعه على صفات الله جل جلاله وكبريائه ومن شهد قلبه عظمة الله وكبرياءه علم شأن تحذيره عندما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي خافوه واخشوه بما أبدى لكم من صفاته وأسمائه وعدله عز وجل ، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ يمجد الرب نفسه ، أنا الجبار الملك ، أنا المتكبر العزيز الكريم . . ، قالها ﷺ فرجف به المنبر حتى قال الصحابة ليخرنّ به ، وجعل النبي ﷺ على المنبر يقول : «**يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده وقبض يده فجعل يقبضها ويبسطها ثم يقول أنا الجبار أين الجبارون أين المتكبرون**» ويتمايل الرسول ﷺ عن يمينه وشماله حتى نظر صحابي إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى قال أساقط هو برسول الله؟!! . ما السموات السبع في الكرسي إلا كلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة فإذا عرف الإنسان عظمة الرب جلب له ذلك الخوف منه .

٩- التفكر في الموت وشدته وأنه لا مفر منه ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ﴾ ، فهذا يوجب الخوف من الله : «**أكثروا من ذكر هادم اللذات، الموت، فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه**» .

١٠- التفكر فيما بعد الموت ، في القبر وأهواله ، قال ﷺ : «**كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنه يرقّ القلب وتدمع العين تذكر الآخرة ولا تقول هجرة**» .

عن البراء يقول كنت مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى بلّ الثرى وقال: يا أخواني لمثل هذا فأعدّوا .

١١- إذا قدم إلى القيامة وأهوالها وحديث البعث والنشور إلى ذبح الموت ، «**يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور**» .

لفت النظر يقوي مراقبة العبد ربه .

١٢- إذا دخل أهل النار النار . . ، ماذا يوجد فيها من الأهوال في شدة عذابها؟!! . . ، ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ . قال الحسن: كبرت منذرة داهية عظيمة أعظم الدواهي ما أنذرت الخلائق بشيء قط أفظع منها .

وكيف قرت لأهل العلم أعينهم ::: أو استلذوا لذيذ النوم أو هجعوا
والموت ينذرهم جهراً علانية ::: لو كان للقوم أسماع لقد سمعوا
أفي الجنان وفوز لا انقطاع له ::: أم الجحيم فلا تبقي ولا تدع
لينفع العلم قبل الموت عالمه ::: قد سأل قوم بها الرجعى فما رجعوا

١٣- تفكر العبد في ذنوبه وأنه نسيه والله تعالى أحصاها ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاه ، وأن الله يمكن أن يعطيه النعم استدراجاً ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً ﴾ ، في قصة صاحب الجنتين حين قال ﴿ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ .

١٤- التفكر في عاقبة محقرات الذنوب التي يحقرها الناس، وقد مثلها النبي ﷺ بقوم نزلوا بطن واد فجاء هذا بعود وهذا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وهناك ارتباط بين الأعواد وإيقاد النار وبين الذنوب وما تسبب من نضج جلود العصاة ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾.

١٥- أن يعلم العبد أنه قد يحال بينه وبين التوبة بموت مفاجيء، تسويف، شبهات، إصرار على المعصية والشهوات، فتنة مضلّة، والحسرة حينها لا تنفع ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾.

١٦- التفكر في سوء الخاتمة حينئذ ﴿الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾، وملك الموت كيف يسحب روح الفاجر فيتقطع فيها كل عرق وعصب وكيف يجعل في كفه من النار وحنوط له من جهنم..

تجالس ناس يكسبونك خشية وخوف من الله من الصالحين والعلماء المتقين ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، صاحب أصحاب الخشية، رقة قلب إذا سمعوا الذكر وتلين قلوبهم ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

أصحب سير الخائفين من الله..

- الإمام أحمد وخشيته..

- ابن عباس رضي الله عنه كان تحت عينيه خطّان كالشراكان الباليان أخاديد من الدموع.

- عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ آيات فمرض مرض عاده الناس من بعده.

- عائشة وأبو بكر رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذى قال عن نفسه: «**لو نادى منادٍ من السماء يا أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم إلا**

واحداً لخفت أن أكون أنا هو» . .!! وغيرهم من الصحابة والتابعين .

١٧- سماع المواعظ وبعض الخطب .

١٨- العلم بالله وأسمائه وصفاته وكلامه وكلام رسوله .

١٩- الدعاء .

وذلك مقصود في دعاء الرسول ﷺ يسأل الله أن يرزقه الخشية: «**ربي أعني ولا تعن علي وانصرني ولا تنصر علي وامكر لي ولا تمكر علي واجعلني لك شكاراً لك ذكاراً لك رهّاباً لك مطواعاً لك مخبتاً إليك أواهاً منيباً، ربي تقبل توبتي واغسل حوبتي وأجب دعوتي وثبت حجتي وسدد لساني واهدِ قلبي واسلل سخيمة صدري**» . .

ويدعو بقوله: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك**» .

«**اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة**» .

موانع الخوف

الخوف تمنعه أشياء منها المعاصي ، الدنيا ، الرفقة السيئة ، الغفلة وتبلّد الإحساس . .

الخوف القاصر نوع خطير من الخوف ، وهو أن يحضر موعظة ويسمع ويتأثر ثم يمشي . .

هذا خوف لا يكفي وإنما العبرة بما وقع نفع ودخل واستقر . .

المطلوب الخوف المستمر . .

قال أحد الصحابة: (وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل إنها موعظة مودّع ماذا تعهد إلينا؟ فأعطاهم ﷺ الوصية) . . انظر إليهم . . يريدون التطبيق . .

والرسول ﷺ قال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله.. سلوني.. سلوني..**» فغطّى الصحابة وجوههم يبكون . .!!

جاء حذافة وقد كان ينسب لغير أبيه فقال من أبي قال حذافة: فصار إثبات نسبه بالوحي، حتى جاء عمر فقال: رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً عائذاً بالله من سوء الفتن . .

فقال الرسول ﷺ : لم أرك اليوم قط في الخير والشر، إني صورت لي الجنة والنار رأيتهما دون هذا الحائط . .

قال ﷺ : «**أطّت السماء وحق لها أن تأطّ ما فيها موضع إلا وفيها ملك قائم أو قاعد أو ساجد**» . .

فالخوف إذا باشر قلب العبد فاض أثره على الجوارح وظهر، وليس أنه كان شيئاً سريعاً وذهب . .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ::: إن السفينة لا تجري على اليبس

قال ﷺ : «**ما رأيت مثل النار نام هاربها**» . .

قال ابن تيمية - رحمه الله -: (كل عاصٍ لله فهو جاهل وكل خائف منه فهو عالم مطيع)، الخائف من الله يبادر إلى الخيرات قبل الممات ويغتنم الأيام والساعات . .

من فوائد الخوف:

١ - أن الله جعله شرطاً لحصول الإيمان ﴿ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . قال ابن جرير: لا تخافوا أيها المؤمنين المشركين ولا يعظمن عليكم أمرهم ولا ترهبوا جمعهم مع طاعتكم إياي فأطعتموني واتبعتم أمري وإني متكلف لكم بالنصر والظفر ولكن خافوني واتقوني أن تعصوني أن تخالفوا أمري فتهلكوا إن كنتم مؤمنين فالله عزوجل أولى أن يخاف منه من الكفار والمشركين .

٢ - ابتلى الله الصحابة رضي الله عنهم بابتلاء عظيم ليظهر الذي لا يخاف من الذي يخاف في الصيد ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ليختبرنكم الله أيها المؤمنون ببعض الصيد في حال الإحرام كي يعلم أهل طاعة الله والإيمان به المنتهون إلى حدوده وأمره ونهيه، يختبر ليظهر من الذي يخاف الله والذي لا يخافه ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾، يعني يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً ومحرم عليهم الصيد في الإحرام لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره ومن لا يطيع، أما الصحابة فنجحوا في ذلك، وأما اليهود ففشلوا عندما حرم الله عليهم الصيد يوم السبت فاستحلوا محارم الله بأدنى الحيل، فنصبوا الشباك يوم الجمعة وسحبوها يوم الحد، فلم يخافوا الله فهلكوا.

فالمرء قد يتعرض أحياناً لمعصية أو شهوة والوقوع فيها يسير جداً وقد تكون الفضيحة مأمونة ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾، وكما في قصة يوسف وامرأة العزيز، هنا يكون الاختبار والبلاء.

الخوف من الله عبادة قامت في قلب النبي ﷺ فارتفعت نفسه عن المحرمات والمحظورات لأنه يخاف رب الأرض والسموات ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾. فهو يخشى عذاب الله ولا يتعد حدوده.

٣ - الخوف من الله من صفات أولي الألباب ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾. الخوف من الله يدل على أن صاحبه صاحب عقل، من أولي الألباب أي راجح العقل يعرف الشيء الذي يخوّف حقاً.

نماذج من خوف بعض الصحابة والتابعين:

هذا أبو بكر رضى الله عنه أفضل رجل في هذه الأمة بعد رسول الله نظر إلى طير وقع على شجرة فقال: ما أنعمك يا طير، تأكل وتشرب وليس عليك حساب وتطير ليتني كنت مثلك، وكان رضى الله عنه كثير البكاء وكان يمسك لسانه ويقول: (هذا الذي أوردني

الموارد) وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله .

وهذا عمر قال لابنه عبد الله وهو في الموت: (ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني ثم قال: بل ويل أمي إن لم يغفر لي وويل أمي إن لم يغفر لي) ، وأخذ مرة تبنة من الأرض فقال: (ليتني هذه التبنة ليتني لم أكن شيئا ، ليت أمي لم تلدني ، ليتني كنت منسيا) ، وكان رضى الله عنه يمر بالآية من ورده بالليل فتخيفه ، فيبقى في البيت أياما معاد يحسبونه مريضا ، وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء .

وهذا عثمان رضى الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته وقال: (لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي ، لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصيرُ) .

وهذا علي رضى الله عنه كما وصفه ضرار بن ضمرة الكناني لمعاوية يقول: كان والله بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، ويتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفيه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه ويجيبنا إذا سألناه ، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يميل في محرابه قابضا على لحيته يضطرب ويتقلب تقلب الملسوع ويبكي بكاء الحزين ، فكأني أسمعه وهو يقول: يا ربنا يا ربنا ، يتضرع إليه يقول للدنيا: إلي تعرضت ، إلي تشوفت ، هيهات هيهات غري غيري قد طلقتك ثلاثا فعمرك قصير ومجلسك حقير وخطرك يسير ، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق . فوكفت دموع معاوية رضى الله عنه على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء وهو يقول: هكذا والله كان أبو الحسن .

وهذا ابن عباس كان أسفل عينيه مثل الشّراك البالي من البكاء .

وهذا أبو عبيدة يقول عن نفسه: وددت أني كنت كبشا فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي

ويشربون مرقي ، وهكذا كان حال صحابة رسول الله مع أنهم كانوا مبشرين بالجنة فهذا علي رضي الله عنه يصفهم ويقول: لقد رأيت أصحاب محمدﷺ فلم أرَ أحدا يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا وقد باتوا سجدا أو قياما ، يراوحون بين جباههم وخدودهم ، ويقعون على مثل الجمر من ذكر معادهم كأن بين أعينهم ركب العزي من طول سجودهم إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبتل جيوبهم ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف خوفا من العقاب ورجاء للثواب . وهذا سفيان الثوري رحمه الله يقول: والله لقد خفت من الله خوفا أخاف أن يطير عقلي منه وإني لا أسأل الله في صلاتي أن يخفف من خوفي منه .

أيها الأحبة: هل من مشمر؟ هل من خائف؟ هل من سائر إلى الله؟ بعد هذا الذي سمعناه أرجو أن نكون مثل سلفنا علما وعملا خوفا ورجاء ومحبة فإن فعلنا ذلك كنا صادقين وكنا نحن المشمرين إن شاء الله .

لما سألت عائشة رضي الله عنها رسول اللهﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: «**لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه**» ، قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم ، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية وإن المنافق جمع إساءة وأمنا .

وكان خوفهم أيضا من أن يسلب أحدهم الإيمان عند قوته يقول ابن المبارك: إن البصراء لا يأمنون من أربع خصال: ذنب قد مضى لا يدري ما يصنع الرب فيه ، وعمر قد بقي لا يدري ما فيه من الهلكات ، وفضل قد أعطي لعله مكر واستدراج وضلالة قد زينت له فيراها هدى ومن زيغ القلب ساعة ساعة أسرع من طرفة عين قد يسلب دينه وهو لا يشعر .

وهذا سفيان الثوري رحمه الله كان يكثر البكاء فقيل له: يا أبا عبد الله بكاؤك هذا خوفا من الذنوب ، فأخذ سفيان تبناً وقال: والله للذنوب أهون على الله من هذا ولكن أخاف أن أسلب التوحيد . وهذا أبو هريرة رضى الله عنه كان يقول في آخر حياته: (اللهم إني أعوذ

بك أن أزني أو أعمل كبيرة في الإسلام)، فقال له بعض أصحابه: يا أبا هريرة ومثلك يقول هذا أو يخافه وقد بلغت من السن ما بلغت وانقطعت عنك الشهوات، وقد شافهت النبي ﷺ وبايعته وأخذت عنه، قال: (ويحك، وما يؤمنني وإبليس حي).

وكان بلال بن سعد يقول في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من زيغ القلوب، وتبعات الذنوب ومن مرديات الأعمال ومضلات الفتن).

قال أبو الدرداء رضى الله عنه: (مالي لا أرى حلاوة الإيمان تظهر عليكم، والله لو أن دب الغابة وجد طعم الإيمان لظهر عليه حلاوته، ما خاف عبد على إيمانه إلا منحه وما أمن عبد على إيمانه إلا سلبه) وكان من دعائه رضى الله عنه: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ويا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك وطاعة رسولك)، ولما احتضر عمر بن قيس، الملائي بكى فقال له أصحابه: على ما تبكي من الدنيا فوالله لقد كنت غضيض العيش أيام حياتك فقال: والله ما أبكي على الدنيا وإنما أبكي خوفا من أن أحرم الآخرة.

يقول الإمام الغزالي: ولا يسلم من أهوال يوم القيامة إلا من أطال فكره في الدنيا فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينيك ويرق قلبك حال الموعظة ثم تنساه على القرب، وتعود إلى لهوك ولعبك، فما هذا من الخوف في شيء فمن خاف شيئا هرب منه، ومن رجا شيئا طلبه، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك من المعاصي ويحثك على الطاعة، وأبعد من رقة النساء خوف.

أحبتي: لم يكن سلفنا الصالح يخافون ويبكون ويتضرعون نتيجة تقصيرهم أو نتيجة عصيانهم وكثرة ذنوبهم، كلا بل كانوا يخافون أن لا يتقبل الله منهم ولهذا الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم: استعنت بالله اللهم سلم سلم، وهم مع ذلك مصرون على المعاصى التى هى سبب هلاكهم، فالشيطان يضحك من استعاذته كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن فإذا رأى أنياب السبع وصرلته من بعد قال بلسانه: أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام

أركانه ، فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى يغنى عنه ذلك من السبع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول: لا إله إلا الله صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره) ، فالله أسأل أن يجعلنا ممن إذا خافه أطاعه وابتعد عن معاصيه .

ثمرات الخوف من الله:

أ – في الدنيا..

١ – من أسباب التمكين في الأرض ، وزيادة الإيمان والطمأنينة لأنك إذا حصل لك الموعود وثقت أكثر ، قال عز وجل: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ، إذاً الخوف من الله يؤدي إلى التمكين في الأرض والانتصار على الأعداء وأن يهلك الله عدوهم ويخزيهم ويورث المؤمنين أرضهم وديارهم .

٢ – يبعث على العمل الصالح والإخلاص فيه وعدم طلب المقابل في الدنيا فلا ينقص الأجر في الآخرة ﴿ إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ ، ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ ، أي تضطرب وتتقلب وهذا هو الذي دفعهم للعمل ، يريدون النجاة ويحذرون الهلاك ويخافون أن يأتوا وكتبهم بشمالهم .

ب – في الآخرة..

١ – يجعل الإنسان في ظل العرش يوم القيامة ، «**ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله**» ، ظاهر الحديث أنه يقولها بلسانه ليزجر المرأة عن فعلها وليذكر نفسه ويصر على موقفه ولا يتراجع بعد إعلان المبادئ ، «**ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**» ، الخشية الموجبة لدمع العين تؤدي إلى أن النار لا تمس العين يوم القيامة .

١ – من أسباب المغفرة ، شاهد ذلك الحديث: رجل كان فيمن قبلنا عنده جهل عظيم

ورزقه الله مالاً فقال لبنيه لما حضره الموت: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب ، قال: فإني لم أعمل خيراً قط فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم عاصف ، ففعلوا وما أسهل أن يعيده الله كما كان ، قال: ما حملك؟ قال: مخافتك ، فتلقاه برحمته . .!! ، فعذره الله بجهله وشفع له خوفه من ربه وإلا فالذي ينكر البعث كافر .

٢ - يؤدي إلى الجنة لأن النبي ﷺ : «**من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة**» أي الذي يخاف من إغارة العدو وقت السحر يسير من أول الليل(أدلج) فبلغ المنزل والمأمن والمطلب ، وهذا مثل ضربه الرسول ﷺ لسالك الآخرة فإن الشيطان على طريقه والنفس الأمارة بالسوء والأماني الكاذبة وأعوان إبليس ، فإن تيقظ في مسيره وأخلص النية في عمله أمن من الشيطان وكيده ومن قطع الطريق عليه ، هذه سلعة الله التي من دخلها كان من الآمنين .

٣ - يرفع الخوف عن الخائف يوم القيامة: «**وعزتي وجلالي، وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة**» .

٤ - سبب للنجاة من كل سوء ، «**ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية**» فهذه الخشية هي التي تحفظ العبد وتنجيه من كل سوء لأنه قال ووعد الله لا يخلف وهذا رسوله (منجيات) وعمّم تشمل الدنيا والآخرة .

٥ - يصبح الإنسان ممدوحاً مثني عليه ويكفيه فخراً أن يدخل في أصحاب الأسماء والألقاب الشريفة ﴿ **الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ** ﴾ ألفاظ شريفة كانوا يسعون لحيازتها ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ .

﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** ﴾ .

﴿ **وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ** ﴾ .

وأثنى الله على أقرب عبادة وهم الأنبياء لخوفهم منه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ .

بل الملائكة ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

قال ابن القيم: من ثمرات الخوف أن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة مكدرة .

وليس المقصود تكدير اللذائذ المباحة ، الرسول ﷺ استمتع وهو سيد الخائفين على قدر: «**حبب إليه من الدنيا الطيب والنساء**» .

تكدر اللذات المحرمة بتذكر عذاب الله ووعيده لمن وقع فيها فتتكدر لذته المحرمة بتذكر مابها من عذاب .

قال ابن القيم – رحمه الله –: كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سمّاً ، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويذل القلب ويستكين ويفارقه الكبر والحقد والحسد ويصير مستوعب الهم لخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والظنّة (البخل) بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله (الخائف) كم وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أيغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلكه ولا شغل له إلا ما وقع فيه ، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف وقوة المعرفة بجلال الله تعالى وصفاته وبعيوب نفسه وما بين يديها من الأخطار والأهوال .

وقال ابن قدامة: فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة وهي لقاء الله تعالى والقرب منه ، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ .

٥ – الرضا من الله ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .

* * * * *

المبحث الرابع:

الخشيـة

الخشية أمرها عظيم، وقد مدح الله وأثنى على الذين يخشونه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[١] ولا خير في علم لا يؤدي إلى خشية الله تبارك وتعالى.

إذا زاد الإيمان في قلب المؤمن لم يعد يستحضر في قلبه إلا الخوف من الله، والناس في خوفهم من الله متفاوتون ولهذا كان خوف العلماء في أعلى الدرجات وذلك لأن خوفهم مقرون بمعرفة الله مما جعل خوفهم مقرون بالخشية كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٢].

والخشية درجة أعلى وهي أخص من الخوف، فالخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء العارفين وعلى قدر العلم والمعرفة تكون الخشية، كما قال النبي ﷺ: «**إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية**» وقال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله**» قال الإمام أحمد: هذا يدل على أن كل من كان بالله أعرف كان منه أخوف.

والخوف: هو اضطراب القلب ووجله من تذكر عقاب الله وناره ووعيده الشديد لمن عصاه والخائف دائما يلجأ إلى الهرب مما يخافه إلا من يخاف من الله فإنه يهرب إليه كما قال أبو حفص: الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل، فإنك إذا خفته هربت إليه. فالخائف هارب من ربه إلى ربه قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٣]، قال أبو سليمان الداراني: ما فارق الخوف قلبا إلا خرب، وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها.

---

(١) فاطر: ٢٨.
(٢) فاطر ٢٨.
(٣) الذاريات ٥٠.

وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق . وقال أبو حفص: الخوف سوط الله ، يقوّم به الشاردين عن بابه .

والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الخوف المحمود: هو ما حجزك عن محارم الله وهذا الخوف من أجلّ منازل السير إلى الله وأنفعها للقلب وهو فرض على كل أحد .

ومن كان الخوف منه بهذه المنزلة سوف يحجزه خوفه عن المعاصي والمحرمات فلا يأكل مالا حراما ولا يشهد زورا ، ولا يحلف كاذبا ، ولا يخلف وعدا ولا يخون عهدا ولا يغش في المعاملة ولا يخون شريكه ولا يمشي بالنميمة ، ولا يغتاب الناس ولا يترك النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يزني ولا يلوط ولا يتشبه بالنساء ولا يتشبه بغير المسلمين ولا يتعاطى محرما ولا يشرب المسكرات ولا المخدرات ولا الدخان ولا الشيشة ولا يهجر مساجد الله ولا يترك الصلاة في الجماعة ولا يضيع أوقاته في اللهو والغفلة بل تجده يشمر عن ساعد الجد يستغل وقته كله في طاعة الله ولهذا قال ﷺ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل ألا وإن سلعة الله غالية ألا وإن سلعة الله هي الجنة**»[1] والمراد بهذا الحديث التشمير في الطاعة والاجتهاد من بداية العمر لأن الجنة غالية تحتاج إلى ثمن باهظ ومن سعى لها وعمل صالحا وسار من أول الطريق نال بغيته إن شاء الله .

ولهذا كان السلف الصالح يغلّبون جانب الخوف في حال الصحة والقوة حتى يزدادوا من طاعة الله ويكثروا من ذكره ويتقربوا إليه بالنوافل والعمل الصالح .

أحبتي: إن رجحان جانب الخوف من الله في قلب المؤمن هو وحده الذي يرجح الكفة وهو وحده الذي يعصم من فتنة هذه الدنيا وبدون الخوف لا يصلح قلب ولا تصلح حياة ولا تستقيم نفس ولا يهذب سلوك وإلا فما الذي يحجز النفس البشرية عن ارتكاب المحرمات من زنى وبغى وظلم وركون إلى الدنيا غير الخوف من الله ، وما الذي يهدئ فيها

---

(١) رواه الترمذي / حديث حسن .

هيجان الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟

وما الذي يثبت النفس في المعركة بين الحق والباطل وبين الخير والشر؟ وما الذي يدفع الإنسان إلى تقوى الله في السر والعلن سوى خوف الله، فلا شيء يثبت الإيمان عند العبد رغم الأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج إلا اليقين في الآخرة والإيمان بها والخشية والخوف مما أعده الله من العذاب المقيم لمن خالف أمره وعصاه. فتذكر الآخرة في جميع الأحوال والمناسبات والظروف يجعل عند الإنسان حسا مرهفا يجعله دائم اليقظة جاد العزيمة دائم الفكر فيما يصلحه في معاشِه ومعادِه كثير الوجل والخوف مما سيؤول إليه في الآخرة.

في كتاب الزهد للإمام أحمد عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قلت ليزيد! ما لي أرى عينيك لا تجفّ؟ قال: يا أخي إن الله توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لو توعدني أن يسجنني في الحمام لكان حريا أن لا يجف لي دمع. وروى ضمرة عن حفص بن عمر قال: بكى الحسن البصري فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أخاف أن يطرحني في النار غدا ولا يبالي. ولهذا من خاف واشتد وجله من ربه في هذه الدنيا يأمن يوم الفزع الأكبر.

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا أنه قال: «**وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين: إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة**»[1].

أحبتي: لقد عاش المسلمون الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة عاشوا مشاهد الآخرة فعلا وواقعا كأنهم يرونها حقيقة ولم يكن في نفوسهم استبعاد لذلك اليوم بل كان يقينهم بذلك اليوم واقعا تشهده قلوبهم وتحسّه وتراه وتتأثر وترتعش وتستجيب لمرآه ومن ثم تحولت نفوسهم ذلك التحول وتكيفت حياتهم على هذه الأرض بطاعة الله وكأن النار إنما خلقت لهم.

قال يزيد بن حوشب: ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه.

تخلق إلا لهما، وحق لهما أيها الإخوة ولكل مؤمن أن يخاف من النار وأن يستعيذ بالله منها لأن الخبر ليس كالمعاينة يقول ﷺ: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد**»[١] وقال في وصف النار محذرا منها: «**نار الدنيا جزء من سبعين جزءا من نار جهنم**» ولهذا كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم إذا رأى أحدهم نارا اضطرب وتغير حاله.

فهذا عبد الله بن مسعود مر على الذين ينفخون على الكير فسقط مغشيا عليه وهذا الربيع بن خثيم رحمه الله مر بالحداد فنظر إلى الكير فخر مغشيا عليه، وكان عمر بن الخطاب ربما توقد له نار ثم يدني يديه منها ويقول: «**يا ابن الخطاب هل لك صبر على هذا**».

وكان الأحنف رضي الله عنه: يجيء إلى المصباح بالليل فيضع إصبعه فيه ثم يقول: (حس، حس ثم يقول يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا وكذا يحاسب نفسه) وفي الحديث: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم**».

أحبتي :إن أمر القيامة أمر عظيم رهيب، يرجّ القلب ويرعب الحس رعبا مشاهده يرجف لها القلوب والله سبحانه أقسم على وقوع هذا الحادث لا محالة فقال في سورة الطور ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ**﴾[٢] فهو واقع حتما، لا يملك دفعه أحد أبدا والأمر داهم قاصم ليس منه دافع ولا عاصم كما أن دون غد الليلة، فما أعددنا لذلك اليوم، وما قدمنا له وهل جلس كل منا يحاسب نفسه ما عمل بكذا وما أراد بكذا بل الكل ساهٍ لاه، والكل في سكرته يعمهون ويلعبون ويضحكون ويفسقون ويفجرون وكأن أحدهم بمنأى من العذاب وكأنهم ليس وراءهم موتا ولا نشورا ولا جنة ولا نارا ﴿ **أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ**﴾[٣] يقول الحسن البصري رحمه الله: (إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلمتي، ما أردت بأكلتي ما أردت بحديثي، وإن الفاجر يمضي قدما ما يعاقب نفسه). فحقيق بالمرء أن يكون له مجالس يخلو

---

(١) رواه مسلم.
(٢) الطور: ٧.
(٣) المطففين: ٥.

فيها يحاسب نفسه ويتذكر ذنوبه ويستغفر منها .

أيها الأحبة: لقد كان المسلمون يعيشون مع القرآن فعلا وواقعا عاشوا مع الآخرة واقعا محسوسا ، لقد كانوا يشعرون بالقرآن ينقل إليهم صوت النار وهي تسري وتحرق وإنه لصوت تقشعر منه القلوب والأبدان كما أحس عليه الصلاة والسلام برهبة هذا الأمر وقوته حتى أنه وعظ أصحابه يوما فقال: «**إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله عز وجل، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله والله لوددت أني شجرة تعضد**»[1] .

وفي رواية قال: «**عرضت علي الجنة والنار فلم أرى كاليوم في الخير والشر**» ثم ذكر الحديث فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه غطوا رؤوسهم ولهم خنين والخنين هو البكاء مع غنّه ، ولطول المطلع وشدة يطرحني في النار غدا ولا يبالي . ولهذا من خاف واشتد وجله من ربه في هذه الدنيا يأمن يوم الفزع الأكبر .

وكما قيل:

يا آمنا مع قبح الفعل منه هل أتاك توقيع أمن أنت تملكه

جمعت شيئين أمنا واتباع هوى ::: هذا وإحداهما في المرء تهلكه
والمحسنون على درب الخوف قد ساروا ::: و ذلك درب لست تسلكه
فرطت في الزرع وقت البذر من سفه ::: فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شيء فيك زهدك في ::: دار البقاء بعيش سوف تتركه

نعم والله هذا حال الكثير من الناس اليوم لا يريدون أن يعملوا ولا يريدون أن يتذكروا فإذا ذكرت لهم النار قالوا: لا تقنط الناس ، وهذا والله هو العجب العجاب يريدون أن يبشروا بالجنة ولا يذكروا بالقيامة وأهوالها ولا بالنار وسمومها وعذابها وهم على ما هم فيه من سيئ الأعمال وقبيح الصفات ، قال: الحسن البصري: لقد مضى بين أيديكم أقوام لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصى ، لخشي أن لا ينجو من عظم ذلك اليوم ، وقد ورد في

---

(١) رواه البخاري .

الترمذي عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها**» والسبب في ذلك ضعف جانب الخوف عند هؤلاء ، لقد كان بعض السلف من شدة خوفه ووجله وكثرة تفكيره في أحواله الآخرة لا يستطيع النوم ولا الضحك ولا اللهو حتى يعلم أهو من الناجين أم لا ، فهذا شداد بن أوس رضى الله عنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم ويقول (الله إن النار أذهبت مني النوم فيقوم يصلي حتى يصبح) .

وهذا منصور بن المعتمر كان كثير الخوف والوجل كثير البكاء من خشية الله قال عنه زائدة بن قدامة: إذا رأيته قلت: هذا رجل أصيب بمصيبة ولقد قالت له أمه: ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكى عامة الليل ، لا تكاد أن تسكت لعلك يا بنيّ أصبت نفسا ، أو قتلت قتيلا؟ فقال: يا أمه أنا أعلم بما صنعت نفسي .

وهذا معاذ بن جبل رضى الله عنه لما حضرته الوفاة جعل يبكي ، فقيل له: أتبكي وأنت صاحب رسول الله ﷺ وأنت وأنت؟ فقال: ما أبكي جزعاً من الموت أن حل بي ولا دنيا تركتها بعدي ، ولكن هما القبضتان ، قبضة في النار وقبضة في الجنة فلا أدري في أي القبضتين أنا . يقول الحسن بن عرفه: رأيت يزيد بن هارون بواسط وهو من أحسن الناس عينين ، ثم رأيته بعد ذلك بعين واحدة ثم رأيته بعد ذلك وقد ذهبت عيناه فقلت له: يا أبا خالد ما فعلت العينان الجميلتان ، فقال: ذهب بهما بكاء الأسحار . والبكاء من خشية الله سمة العارفين قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه : لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بمئة ألف درهم .

ولما جاء عقبة بن عامر إلى النبي ﷺ يسأله: ما النجاة؟ نعم والله ما النجاة كيف ننجو من عذاب الله؟ فقال له: «**أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك**» وفي رواية قال: «**طوبى لمن ملك نفسه ووسعه بيته وبكى على خطيئته**» .

وقد بين ﷺ أن من بكى من خشية الله فأن الله يظله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله فقال: « . . . **ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**» بل حرم الله النار على من بكى من

خشيته قال ﷺ : «**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع**» ، وفي رواية قال: «**حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله**» وكلا الحديثين صحيح .

وفي الأثر الإلهي: (ولم يتعبد إلي المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي) .

أحبتي: إن سلفنا الصالح كانوا يتوجهون إلى الله في خشية وبكاء ووجل وطمع الخوف من عذاب الله والرجاء في رحمته والخوف من غضبه والطمع في رضاه والخوف من معصيته والطمع في توفيقه: ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً** ﴾[١] والتعبير القرآني يصور هذه المشاعر المرتجفة في الضمير بلمسة واحدة حتى لكأنها مجسّمة ملموسة ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾[٢] إنها الصورة المشرقة المضيئة لسلفنا الصالح رضوان الله عليهم كانوا يخافون ويرجون وكانوا يبكون حتى يؤثر فيهم البكاء فبكاؤهم ثمرة خشيتهم لله قال تعالى عنهم: ﴿ **وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً** ﴾[٣] وقال أيضا: ﴿ **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** ﴾[٤] ، فبالخوف والخشية تحترق الشهوات وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة والتواضع والخضوع ، ويفارق الكبر والحسد ، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والمحافظة على الأوقات واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك ، فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره . هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين .

---

(١) سورة السجدة: ١٦ .
(٢) الأنبياء: ٩٠ .
(٣) الإسراء: ١٠٩ .
(٤) الرعد: ٢١ .

يقول بلال بن سعد: عباد الرحمن، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من أعمالكم تقبلت منكم أو شيء من خطاياكم غفرت لكم والله لو عجل لكم الثواب في الدنيا لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم من العبادة، وتنافسون في جنة ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾[1]، ويقول أيضا: رب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر، فويل لمن بان له الدليل ولا يشعر يأكل ويشرب ويضحك، وقد حق عليه في قضاء الله عز وجل أنه من أهل النار فيا ويل لك روحا والويل لك جسدا فلتبك ولتبك عليك البواكي لطول الأبد، فبمثل هذه العبارات كان الرسول وكان السلف يجاهدون أنفسهم ويعظون غيرهم حتى ينتبه الناس من غفلتهم ويصحوا من رقدتهم ويفيقوا من سكرتهم رجاء أن يدركوا من سبقهم إلى الطريق المستقيم ويكون الخوف دافعا لهم على الاستقامة ما كانوا على وجه الأرض أحياء مكلّفين.

الفرق بين الخوف والخشية:

قال تعالى: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[2] وآية: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾[3] وذكر أن الله مدح أهل الخوف.

الآيات من سورة المؤمنون، الفرق بين هذه الألفاظ، مثل: الرهبة والوجل والخشية والخوف والإشفاق، والتفريق بينها من دقائق العلم التي لا يتفطن إليها إلا من وفقه الله، كما كان حال ابن القيم رحمه الله فيقول: "الوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة" قال: "قيل: إن الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره، وقيل اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف".

وحقيقة الخوف واضحة، وإيضاح الواضح من المشكلات، فالخوف معروف، لكن نأخذ ما بعده ليتضح الفرق، ويقول رحمه الله: "الخشية أخص من الخوف؛ فإن الخشية

---

(١) الرعد: ٣٥.
(٢) البقرة: ٤٠.
(٣) المائدة: ٤٤.

للعلماء بالله" وأخذ هذا من قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[١] . فالعلماء هم الذين يخشون الله ؛ لأن الناس في هذا أنواع:

فالنوع الأول: العالم بالله ، والعالم بدين الله ، فهم من يخشى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

النوع الثاني: عالم بالله غير عالم بدين الله ، وهذا الذي وقع فيه كثير من العباد ، فهو لديه حقائق الإيمان واليقين والإخلاص والرجاء والرغبة والخوف ؛ ولكنه غير عالم بدين الله ، فلا يعرف الحلال من الحرام ، وربما وقع في البدعة فخرج عن طريق الإيمان والعلم ، ولم يعد عالماً بالله .

النوع الثالث: من ليس عالماً بالله ولا عالماً بدين الله ، وهذا حال أكثر الخلق ، نسأل الله العفو والعافية .

يقول ابن القيم: " فهى - أي: الخشية - خوف مقرون بمعرفة ، وقال النبى ﷺ : «**إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية**»[٢] وفي رواية أخرى: «**إني لأعلمكم بالله، وأشدكم له خشية**» فالخشية مقترنة بالعلم ، ففيها زيادة العلم والمعرفة بالمعبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وبيَّن ابن القيم الفرق بينهما فقال: "فالخوف حركة ، والخشية انجماع وانقباض ، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك له حالتان:

إحداهما: حركة للهرب منه وهي حالة الخوف .

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهى: الخشية . . . ثم قال: وأما الرهبة فهى الإمعان في الهرب من المكروه - فالرهبة خوف ؛ ولكن فيها زيادة إمعان في الهرب من المخوف منه وهى ضد الرغبة التى هى سفر القلب في طلب المرغوب فيه" فالرغبة زيادة عن مجرد المحبة ، فالمحبة بلا رغبة لا يقترن بها الحرص والطلب ، وأما الرغبة فيقترن بها العمل والحرص وطلب هذا المحبوب المراد ، ثم يقول رحمه الله: "وبين الرهب والهرب تناسب في اللفظ والمعنى" .

---

(١) فاطر: ٢٨ .

(٢) رواه أحمد .

وهذه عادة لغة القرآن ، اللغة العربية .

الفرق بين الرهبة والرغبة وبين الوجل والهيبة .

ثم قال: "وأما الوجل فرجفان القلب ، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته ، أو لرؤيته" فالوجل خوف ؛ ولكنه من نوع خاص بالنسبة لشعور الإنسان عندما يرى من يجل أو من يخاف منه أو إذا ذكر عنده من يخافه ، ثم قال: "وأما الهيبة فخوف مقارن للتعظيم والإجلال" فالهيبة خوف ؛ ولكنه ليس خوفاً مجرداً ، إنما خوف مقترن به التعظيم والإجلال ، كما قالت العرب:

أهابك إجلالاً ومابك قدرة ::: علي ولكن ملء عينٍ حبيبها

قال: "وأكثر ما تكون مع المحبة والمعرفة ، والإجلال:

تعظيم مقرون بالحب ، - ثم قال - فالخوف لعامة المؤمنين" فكل مؤمن لابد أن يخاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فهذا الذي نعتقده ، وكل مؤمن مطالب أن يخاف على نفسه وعلى إخوانه المسلمين ، وأن يخاف الله تبارك وتعالى ، فالمقصود أن الخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء ، فالعلماء عندهم زيادة خوف مع علم فتصبح خشية ، والهيبة للمحبين سواء كانوا من العلماء أم من غيرهم ، وهذه ليست متعارضة بل يوجد بينها قدر مشترك قد تزيد صفة ، أو جانب من الجوانب في فرد وجانب يزيد في فرد آخر ، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم والسلف ، فبعضهم يزيد عنده جانب الرجاء قليلاً ، وبعضهم جانب الخوف ، وبعضهم جانب الهيبة ، وبعضهم جانب الخشية ، فمثلاً أبو سليمان الدارانى رحمه الله وعامر بن عبد القيس ، وعبد الله بن المبارك ، والفضيل بن عياض ، وسفيان الثوري ، رحمهم الله غيرهم غلب عليهم جانب الخوف ، وبعض العلماء يغلب عليهم جانب الهيبة والإجلال والمحبة ، والله تبارك وتعالى جعل للنفوس التنوع في التعبدات ؛ ليُعْبَد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكل أنواع العبوديات ، وهي في الأصل مشتركة ولها أصل مشترك بين جميع الناس ، فيقول:

"الخوف لعامة المؤمنين ، والخشية للعلماء العارفين ، والهيبة للمحبين ، والإجلال للمقربين ، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية ، كما قال ﷺ : «**إني لأعلمكم**

بـــالله وأشدكم لـــه خشية»، وفي رواية: «**خوفاً**» وقال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قلـــيلاً ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى**» فـزيادة علم النبي ﷺ تدل على معرفته بربه وهيبته لـه تبارك وتعالى، وإجلاله في قلبه، ومـن معـرفته لمـا أعـده الله تـبارك وتعـالى للمؤمنين من الثواب، وللمجرمين من العقاب، ومعرفته ﷺ وعلمه بأيام الله وسنن الله في الذين خلوا من قبلنا.

وهـذه القلـوب في مـثل هذا تتفاوت تفاوتاً عظيماً جداً، وهذا هو موضع زيادة الإيمان ونقـصانه وموضـع التـنافس: ﴿ **وَفِـــي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾[1] ثـم يوضح ذلك بقولـه: "فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب" فيهرب كلما رأى شهوةً دفعته إليها عينه أو أذنه أو قلبه، فعلم: ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾[2] فيهرب مـن هـذه المعـصية ويخـاف، وهـذا هـو حال المؤمن، ثم قال: "وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتـصام بـالعلم" الـذي في كـتاب الله وفي سـنة رسوله ﷺ من أضرار هذه المعصية، ومن فسـادها، وأثـرها علـى القلب، وعلى الحياة في الدنيا والآخرة، ولذلك صاحب هذا العلم تحـصن بأقوى حصن، فلا يرقى إليه هذا الوحش، ولا يطمع فيه ولا يصل إليه؛ لأنه ليس مجـرد هـارب، فالهـارب قـد يُـدْرَك؛ لكـن الـذي يعتصم بحصن حصين لا يُنَال - بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَـى - فكـذلك الإنـسان يعتـصم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويعتصم بالإيمان بالله وبكتاب الله، وبالعلم الذي يقربه من الله ويعرفه بالله عز وجل فلا يأتي شيئاً مما حرم الله؛ لأنـه عـرف ذلك بما أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وما وهبه من العلم بخطر الذنوب والمعاصي وآثارها وضررها على الإنسان.

علاقة الإشفاق بالخوف:

يقول ابن القيم والإشفاق: رقة الخوف" الاشفاق خوف مع رقة، ثم يقول: "وهو خوف بـرحمة من الخائف لمن يخاف عليه" وأرق الخوف هو الإشفاق والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر ذلك في القـرآن، حيث ذكر أن أهل الجنة يتذكرون ما كانوا فيه من الدنيا، فقالوا: ﴿ **إِنَّا كُنَّا قَبْلُ**

(١) المطففين: ٢٦.
(٢) الإسراء: ٣٦.

فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾[١] ، وقال في سورة المعارج: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾[٢] وقال في سورة فاطر: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾[٣] ، فكانوا في الدنيا مشفقين ، وكان الحزن في قلوبهم ؛ لأنهم لا يعلمون كيف يلقون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، أما الذين كانوا في دنياهم فرحين بطرين ، فإنهم يفاجئون يوم القيامة بأهوال لم يكونوا يتوقعونها .

وأما المؤمنون فقد ذكر الله تعالى حالهم في الخوف فقال عنهم: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾[٤] فهذا جزاء الخوف والحزن ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[٥] فكانوا يعانون في الدنيا التعب والألم والأحزان والمصائب ، ولهذا يقول ﷺ : «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» فالمسجون - دائماً - خائف ومشفق حزين ؛ لأنه مسجون ، ولكن من الناس من يكون مطمئناً كما كان شَيْخ الإسْلام رحمه الله لما وضع في السجن قال: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾[٦] فالجنود والسلاطين الذين يقفون في الخارج في العذاب ، وهو في الرحمة بالمقارنة لما أعده الله في الآخرة ، فالمؤمن مسجون في الدنيا مع طمأنينته وفرحه بفضل الله قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[٧] فهو مع فرحته وطمأنينته وسعادته بذكر الله مسجون ؛ لأنه لم يدخل الجنة ولم ير وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ولا الحور العين ، ولم يلتقِ بإخوانه المؤمنين على سرر متقابلين .

وأما الكافر فقد يكون في الدنيا في منتهى الرفاهية والتنعم والتلذذ ، ولكن هذه جنته

---

(١) الطور: ٢٦ .
(٢) المعارج: ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) فاطر: ٣٤ .
(٤) الإنسان: ١٠ ، ١١ .
(٥) فاطر: ٣٤ ، ٣٥ .
(٦) الحديد: ١٣ .
(٧) يونس: ٥٨ .

بالمقارنة لما ينتظره هنالك من العذاب، ففي الآخرة ليس له جنة، حيث يقول تعالى للكافرين: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾[1] ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ ﴾[2] فجنتهم في الدنيا مع ما فيها من الشقاء والنكد والتنغيص، ولكن لأنهم ليس لهم في الآخرة إلا النار فإن جنتهم في الدنيا.

ويُضرب مثل رائع لمقدار التمتع بالدنيا، فالحاكم عبد الرحمن الناصر حكم الأندلس خمسين سنة، والأندلس تسمى جنة الدنيا، ففي يوم من الأيام اجتمع في آخر ملكه مع بعض وزرائه، فتذاكروا هذا الأمر العظيم، وهل سبق أن أحداً حكم هذه المدة وهذه الجنة، وكعادة المنافقين من جلساء السلاطين في كل زمان ومكان أخذوا يمدحونه ويثنون عليه، ولكنه قال لهم: أتدرون كم أيام السرور في هذا الملك في الأندلس ؟! قالوا: لا، قال: عددتها فإذا هي أربعة عشر يوماً! فالمقصود أنه لا بد للمؤمن من الخوف والرجاء والإشفاق والرهبة والرغبة والوجل.

الخوف من الرحمن وسيلة إلى الرضوان:

وهنا فائدة عظيمة ذكرها ابن القيم رحمه الله حيث يقول: "والخوف ليس مقصوداً لذاته بل هو مقصود لغيره، فأهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" والمحبة مقصوده لذاتها، ولهذا نحب الله تبارك وتعالى في الدنيا، وإذا أدخل الله تعالى المؤمنين الجنة يظلون يحبون الله بل يزدادون حباً له؛ لأنها مطلوبة لذاتها، وأما الخوف فليس لذاته بل هو وسيلة للإنزجار عما حرم الله ونهى عنه، فإذا أمِن العبّاد وبشرتهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. زال الخوف، ولهذا قال تعالى في الجنة: ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3] فنفى الله تبارك وتعالى عنهم الخوف والحزن، فلا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما وراءهم؛ لأن الله تعالى يتولى المؤمنين والمتقين والصالحين، فلهذا يقول: ﴿ لا

---

(١) الأحقاف: ٢٠.
(٢) هود: ١٦.
(٣) يونس: ٦٢.

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١] فالخوف ليس مقصوداً لذاته، وإنما لما يترتب عليه من معرفة الله، ومعرفة وعد الله ووعيده، والانزجار عما نهى الله تبارك وتعالى عنه، ثم قال: "والخوف يتعلق بالأفعال، والمحبة تتعلق بالذات والصفات" فالخوف يتعلق بالأفعال، فتجد العبد يخاف من عذاب الله، والله تبارك وتعالى بين لنا أن العذاب فعله، وأن الرحمة والمغفرة صفته الذاتية، قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾[٢] وهذا من كمال رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك نجد في الفاتحة قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[٣] ورحمة الله سبقت غضبه، ولهذا جعل المحبة تتعلق بالذات والصفات، وأما الخوف فإنه متعلق بالأفعال؛ لأن عذابه هو من فعله، وأما محبته فهو يُحَبُّ لذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه غفور رحيم ودود كريم، فاسم الله الودود يشعر بمحبة خاصة جداً. ولو تأمل الناس في صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعرفوا الله، وإذا عرفوه حق المعرفة وعرفوا أنه ودود وغفور ورحيم، أحبوه فلم يعصوه، وإذا انزجروا عن معصيته - لأنهم يؤمنون بأنه الرحمن الرحيم الغفور الودود - لكانوا من أهل الهيبة والإجلال، وهذا أفضل من أن يكونوا من مجرد أهل الخوف كما بين ابن القيم رحمه الله.

الخوف والرجاء عند المؤمن والمنافق:

وكما قال الحسن رحمه الله فيما نقله عنه ابن القيم قال: قال الحسن: "عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً" فإذا وجدت الخائف الوجل المشفق من عذاب الله، فتجد أن أعماله فيها الكثير من الخير والإحسان والفضل، وأما المطمئن فتجد فيه النفاق والبعد والمعصية، والعكس بالعكس، فالمؤمن يحسن العمل ولذلك أحسن الرجاء، وأما المنافق فإنه أمن من مكر الله ولم يخف الله ولم يبال بعقوبة الله؛ فلذلك اطمأن وعمل ما عمل، ولذلك إذا رأيت المؤمن شكا ذنوبه، وخاف من عدم قبول أعماله، ورأى ذنوبه كما جاء في الحديث: «**المؤمن**

---

(١) يونس: ٦٢.
(٢) الحجر: ٤٩، ٥٠.
(٣) الفاتحة: ٢ - ٣.

يـرى ذنوبه كالجبل يخشى أن يقع عليه، وأما المنافق فيرى الذنوب - جميعاً من شرور وخمور وفجور ولهو وإعراض وتهاون في طاعة الله وأكل لحقوق الناس - **كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار**» وإذا سألته وجالسته قال: نحن أحسن حالاً من غيرنا، ثم يذكر حسناته، أما المؤمن فلا يذكر حسناته لأنه يعلم أن هذا خطر عليه.

لا بأس بذكر نعمة الله عليك؛ لكن مع شكر هذه النعمة، وأما في أمور الدين، فينظر العبد إلى من هو فوقه في العبادة والإحسان، وأما في أمور الدنيا فينظر العبد إلى من هو دونه؛ لئلا يزدري نعمة الله عليه.

* * * * *

obeikandl.com

المبحث الخامس:

الرضا

كلمة الرضا تجمع بين شرطين من الشروط التي ذكرها بعض العلماء لشهادة أن لا إله إلا الله وهما القبول والانقياد بل الرضا أعلى منهما وأشمل، وقد آثرته لذلك، ولكونه لفظاً شرعياً ورد في الكتاب والسنة.

وحسبك في تعظيمه قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾[1].

فما رضيه الله لنا وهو الغني الحميد؛ فنحن أولى أن نرضى به وأحق.

فالرضا بالدين هو "أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض، قال الله تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[2].

فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليماً، وهذا حقيقة الرضا بحكمه".

وليس هذا الرضا على درجة واحدة، بل هو - كما في الآية - على ثلاث مراتب "فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان.

فمن لم يرض بتحكيم ما جاء به محمد ﷺ في أصول الدين وفروع الشريعة ويتحاكم إليه، فهو معترض بنوع من أنواع الاعتراض الآتي تفصيلها، فلهذا لا يكون مسلماً - وإن زعم ذلك - كما قال تعالى في الآيات التي قبلها:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) النساء: ٦٥.

يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾[١].

وكيف لا وأول كفر وقع في هذا العالم إنما نشأ "من عدم الرضا؛ فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كوناً - من تفضيل آدم وتكريمه - ولا بحكمه الديني من أمره بالسجود لآدم" مع تصديقه بالله واليوم الآخر، وأن الله هو الإله دون ما سواه.

ومن رضى بأصل التحكيم لكن لم ينتف الحرج عن نفسه، بل ربما زعزعته شبهة أو لحقه شك، فهذا كالأعراب الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم.

ومن انتفى عنه الحرج لكن لم يرق إلى درجة التسليم المطلق للوحي أمراً ونهياً وخبراً، فهو ناقص عن مرتبة الإحسان التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم والتي كان التصديق في ذروتها حتى في أشق المواقف؛ كموقف الحديبية.

وهذا هو الرضا الذي قال عنه ابن القيم: "إن الرضا من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح؛ فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان، قال أبو الدرداء: ذروة سنام الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر".

والرضا يشمل التوحيد كله، ربوبية وألوهية، طاعة وتقرباً، ومن هنا قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً**» وقال: «**من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً؛ غفرت له ذنوبه**»[٢].

" وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته والرضا برسوله والانقياد له والرضا بدينه والتسليم له.

فالرضا بألوهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتبتل إليه وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليها وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه

---

(١) النساء: ٦٠.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي.

والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به .

فالأول: أي: رضا الألوهية - يتضمن رضاه بما أمر به .

والثاني: يتضمن رضاه بما يقدر عليه .

وأما الرضا بنبيه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له ، والتسليم المطلق إليه بحيث يكون أولى به من نفسه ، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته ، ولا يحاكم إلا إليه ، ولا يحكم عليه غيره ، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة ، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته ، ولا في شيء من أحكام ظاهرة وباطنة .

لا يرضى في ذلك بحكم غيره ، ولا يرضى إلا بحكمه ، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم ، وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور .

وأما الرضا بدينه: فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضى كل الرضا ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليماً ، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها أو قول مقلده أو شيخه وطائفته " .

ولهذا جاء هذا الرضا بأنواعه مبيناً في سورة الأنعام التي هي سورة التوحيد العظمى ؛ فقد اشتملت على ثلاثة أنواع من الرضا هي جماع التوحيد كله:

١ - الرضا بالله رباً لا شريك له في التقرب والتأله والتعبد: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[١] .

٢ - الرضا بالله حكماً لا شريك له في التشريع والطاعة: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾[٢] .

٣ - الرضا بالله ولياً لا شريك له في محبته وموالاته: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ

---

(١) الأنعام: ١٦٤ .

(٢) الأنعام: ١١٤ .

السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ﴾ (١).

وقد شرح ذلك الإمام ابن القيم فقال: "الرضا بالله رباً: ألا يتخذ رباً - غير الله تعالى - يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾(٢).

قال ابن عباس رضى الله عنهما: سيداً وإلهاً، يعنى فكيف أطلب رباً غيره وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ﴾(٣).

يعني: معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة.

وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾(٤).

أي: أفغير الله أبتغى من يحكم بينى وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً؟!

وأنت إذا تأملت هذه الآيات حق التأمل، رأيتها هى نفس الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتقاً منها، فكثير من الناس يرضى بالله رباً ولا يبغى رباً سواه، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصراً، بل يوالى من دونه أولياء ظناً منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك وهذا عين الشرك، بل التوحيد: ألا يتخذ من دونه أولياء والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته؛ فموالاة أوليائه واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب

---

(١) الأنعام: ١٤.
(٢) الأنعام: ١٦٤.
(٣) الأنعام: ١٤.
(٤) الأنعام: ١١٤.

التوحيد من أساسه ، فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه .

وكثير من الناس يبتغي غيره حَكماً يتحاكم إليه ويخاصم إليه ويرضى بحكمه ، وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: ألا يتخذ سواه رباً ولا إلهاً ولا غيره حكماً .

وتفسير الرضا بالله رباً: أن يسخط عبادة ما دونه ، هذا هو الرضا بالله إلهاً ، وهو من تمام الرضا بالله رباً ، فمن أعطى الرضا به رباً حقه سخط عبادة ما دونه قطعاً ؛ لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته ، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الألوهية .

فالحاصل: أن يكون الله وحده المحبوب المعظم المطاع ، فمن لم يحبه ولم يطعه ولم يعظمه فهو متكبر عليه ، ومتى أحب معه سواه وعظم معه سواه وأطاع معه سواه فهو مشرك ، ومتى أفرده وحده بالحب والتعظيم والطاعة فهو عبد موحد والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم " .

ومنافي الرضا ومقابله هو الاعتراض والكراهية لما أنزل الله - بعضه أو كله - وإذا فسرناه بالقبول والانقياد ، فضدهما الرد والاعتراض والإباء .

وكل هذا مما وقعت فيه الأمة كلياً أو جزئياً ، فوقع فيها الاعتراض على توحيد المعرفة والإثبات ، والاعتراض على الأمر الشرعي بالتحليل والتحريم والاعتراض على الأمر الكوني ، فاعترض كثير منهم على صفاته وشريعته وقضائه وقدره .

وأصل هذه الاعتراضات التلقي عن غير الله ورسوله ، والاستمداد من غير الوحي وتحكيم غيره ، فمنهم من حكم العقل - بزعمه - فنقل فلسفات الوثنيين وحثالة فكر التائهين ، وهؤلاء هم أصحاب الكلام .

ومنهم من حكم الذوق والوجد والكشف وانتكس بالعقل المسلم إلى حضيض الخرافة والوهم وهؤلاء هم الصوفية .

ومنهم من حكم الأقيسة العقلية والأعراف السياسية بحجة تحقيق المصلحة الشرعية ومراعاة الأصول العقلية - بزعمهم - فأحلوا - من الدماء والأموال والفروج - ما ورد

النص الصريح بتحريمه، وكان ذلك مع وقوعه في دائرة الاجتهاد الخطأ أو التطبيق المتعسف ممهداً لما وقعت فيه الأمة في العصر الحديث من الشرك الأكبر والاعتراض الأطم بتحكيم القوانين الوضعية وإحلالها محل الشريعة، بل الكراهية الصريحة لكثير مما أنزل الله، وبخاصة في الجهاد والحجاب والموالاة والسياسة، ولندع الإمام ابن القيم يفصل لنا صورة الاعتراض التي وصلت إليها الأمة في عصره وحسبك أن تقول بعدها: كيف لو رأى زماننا هذا؟!

يقول رحمه الله: "الاعتراض ثلاثة أنواع سارية في الناس والمعصوم من عصمه الله منها.

* النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشبهة الباطلة:

التي يسميها أربابها قواطع عقلية وهي في الحقيقة خيالات جهلية ومحالات ذهنية، اعترضوا بها على أسمائه وصفاته عز وجل، وحكموا بها عليه، ونفوا لأجلها ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ، وأثبتوا ما نفاه، ووالوا بها أعداءه وعادوا بها أولياءه وحرفوا بها الكلم عن مواضعه ونسوا بها نصيباً كثيراً مما ذكروا به، وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي، فإذا سلم القلب له رأى صحة ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة، فاجتمع له السمع والعقل والفطرة وهذا أكمل الإيمان، ليس كمن الحرب قائمة بين سمعه وعقله وفطرته.

* النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره:

وأهل هذا الاعتراض ثلاثة أنواع:

الأول: المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم المتضمنة تحليل ما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه وإبطال ما صححه، وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ما قيده.

وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة على ذمها، وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض وحذروا منهم ونفروا عنهم.

الـــثاني: الاعـتراض علـى حقائـق الإيمـان والـشرع بـالأذواق والمواجـيد والخـيالات والكـشوفات الـباطلة الشيطانية ، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله ، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفوس الجاهلة .

والعجـب أن أربابهـا ينكـرون على أهل الحظوظ وكل ما هم فيه فحظ ، ولكن حظهم متـضمن مخالفـة مـراد الله ، والإعـراض عن دين الله واعتقاد أنه قربة إلى الله ، فأين هذا من حظوظ أصحاب الشهوات المعترفين بذمها ، المستغفرين منها ، المقرين بنقصهم وعيبهم وأنها منافية للدين؟!

وهـؤلاء في حظـوظ اتخـذوها ديـناً وقدمـوها على شرع الله ودينه واغتالوا بها القلوب واقـتطعوها عـن طـريق الله ، فـتولد مـن معقـول أولـئك وآراء الآخـرين وأقيستهم الباطلة وأذواق هـؤلاء خراب العالم وفساد الوجود وهدم قواعد الدين وتفاقم الأمر وكاد ، لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه ويبين معالمه ويحميه من كيد من يكيد .

الـــثاني: الاعـتراض على ذلك بالسياسات الجائرة التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسوله ، وحكموا بها بين عباده وعطلوا لها وبها شرعه وعدلـه وحدوده .

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل ، قدمنا العقل .

وقال الآخرون: إذا تعارض الأثر والقياس ، قدمنا القياس .

وقال أصحاب الذوق والكشف والوجد: إذا تعارض الذوق والوجد والكشف وظاهر الشرع ، قدمنا الذوق والوجد والكشف .

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع ، قدمنا السياسة .

فجعلت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتاً يتحاكمون إليه .

فهـؤلاء يقولـون: لكـم الـنقل ولـنا العقل والآخرون: أنتم أصحاب آثار وأخبار ونحن أصـحاب أقيسة وآراء وأفكـار ، وأولـئك يقولـون: أنتم أرباب الظاهر ونحن أهل الحقائق ، والآخرون يقولون: لكم الشرع ولنا السياسة .

الثالث: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره:

وهذا اعتراض الجهال وهو ما بين جلي وخفي وهو أنواع لا تحصى .

وهو سار في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم ، ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله ، لرأى ذلك في قلبه عياناً ، فكل نفس معترضة على قدر الله وقسمه وأفعاله إلا نفساً قد اطمأنت إليه وعرفته حق المعرفة التى يمكن وصول البشر إليها ، فتلك حظها التسليم والانقياد والرضا كل الرضا" .

ثمرات الرضا:

إن للرضا ثمراتٌ كثيرةٌ . . منها . .

١- الرضا والفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى . . والنبي صلى الله عليه و سلم كان أرضى الناس بالله وأسرّ الناس بربه وأفرحهم به تبارك وتعالى . .

فالرضا من تمام العبودية ولا تتم العبودية بدون صبرٍ وتوكلٍ ورضا وذلٌ وخضوعٍ وافتقارٍ إلى الله . .

٢- إن الرضا يثمر رضا الرب عن عبده ، فإن الله عز وجل رضي بمن يعبده عمّن يعبده على من يعبده وإذا ألححتَ عليه وطلبتَه وتذلّلتَ إليه أقبل عليك .

٣- الرضا يخلّص من الهمّ والغمّ والحزن وشتات القلب وكسف البال وسوء الحال ، ولذلك فإن باب جنة الدنيا يفتَح بالرضا قبل جنة الآخرة ؛ فالرضا يوجب طمأنينة القلب وبَرْده وسكونه وقراره بعكس السخط الذي يؤدي إلى اضطراب القلب وريبته وانزعاجه وعدم قراره .

فالرضا ينزِل على قلب العبد سكينةً لا تتنزّل عليه بغيره ولا أنفع له منها ؛ لأنه متى ما نزلت على قلب العبد السكينة: استقام وصلُحت أحواله وصلُح باله ، ويكون في أمنٍ ودَعَةٍ وطيبِ عيشٍ . .

٤- الرضا يخلّص العبد من مخاصمة الرب في الشرائع والأحكام والأقضية . .

مثلاً إبليس لما أُمِر بالسجود عصى؟ رفض؟

لم يـرضَ . . كـيف أسـجد لبـشرٍ خلقـتَه من ترابٍ؟ . . فعدم الرضا من إبليس أدّى إلى اعـتراضٍ علـى أمر الله . . فإذاً منافقو عصرنا الذين لا يرضون بحكم الله في الربا والحجاب وتعـدّد الـزوجات في كـل مقـالاتهم في مخاصمةٍ مع الرب سبحانه . . لماذا؟!!! . . . كلامهم يدور على مخاصمة الرب في شرعه وإن لم يصرّحوا بهذا . .! فالرضا يخلّص الإنسان من هذه المخاصمة .

٥- الرضـا مـن العـدل . . الرضـا يُـشْعِر العـبد بعدل الرب . . ولذلك كان ﷺ يقول: «**عـدلٌ فيَّ قضاؤك**» . . والـذي لا يـشعر بعدل الرب فهو جائرٌ ظالمٌ ، فالله أعدل العادلين حتى في العقوبات . .

فقطـع يـد السارق عقوبةٌ ، فالله عدَل في قضائه وعقوباته فلا يُعْتَرض عليه لا في قضائه ولا في عقوباته . .

٦- وعدم الرضا إما:

١- لفواتِ شيءٍ أخطأك وأنت تحبه وتريده .

٢- أو لشيءٍ أصابك وأنت تكرهه وتسخطه .

فيحـصل للـشخص الذي ليس عنده رضا قلقٌ واضطرابٌ إذا نزل به ما يكره وفاته ما يحب حصل لـه أنواع الشقاء النفسي ، وإذا كان راضياً لو نزل به ما يكره أو فاته ما يحب ما شـقي ولا تـألّم ؛ لأن الرضـا يمـنع عـنه هـذا الألم ، فلا هو يأسى على ما فاته ولا يفرح بما أوتي . . ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[1] . .

* الرضا مفيدٌ جداً أن المرء لا يأسف على ما فاته ولا يحزن ولا يتكدّر

على ما أصابه ؛ لأنه مقدّرٌ مكتوبٌ . .

٧- الرضـا يفتح باب السلامة من الغشّ والحقد والحسد ؛ لأن المرء إذا لم يرضَ بقسمة

---

(١) الحديد: ٢٣ .

الله سيبقى ينظر إلى فلانٍ وفلانٍ . . فيبقى دائماً عينه ضيقةٌ وحاسدٌ

و متمنٌ زوال النعمة عن الآخرين . . والسخط يدخل هذه الأشياء في قلب صاحبه . .

٨- الرضا يجعلك لا تشكّ في قضاء الله وقدره وحكمته وعلمه . . فتكون مستسلماً لأمره معتقداً أنه حكيمٌ مهما حصل . . لكن الإنسان الساخط يشكّ

و يوسوس له الشيطان ما الحكمة هنا وهنا؟؟ . .!!

و لذلك (الرضا واليقين) أخوان مصطحبان . .

و (السخط والشكّ) توأمان متلاصقان . .!!

إذا استطعتَ أن تعمل الرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر خيراً كثيراً . .

٩- من أهم ثمرات الرضا: أنه يثمر الشكر .

فصاحب السخط لا يشكر . . فهو يشعر أنه مغبونٌ وحقّه منقوصٌ وحظّه مبخوسٌ . .!! لأنه يرى أنه لا نعمة له أصلاً . .!!

السخط نتيجة كفران المنعم والنعم . .!!!

الرضا نتيجة شكران المنعم والنعم . .!!!

١٠- الرضا يجعل الإنسان لا يقول إلا ما يرضي الرب . .

السخط يجعل الإنسان يتكلّم بما فيه اعتراضٌ على الرب ، وربما يكون فيه قدحٌ في الرب عز وجل . .

صاحب الرضا متجرّدٌ عن الهوى ::: و صاحب السخط متّبعٌ للهوى

و لا يجتمع الرضا واتباع الهوى ، لذلك الرضا بالله وعن الله يطرد الهوى . .

صاحب الرضا واقفٌ مع اختيار الله . .

يحسّ أن عنده كنزٌ إذا رضي الله عنه أكبر من الجنة . .

لأن الله عندما ذكر نعيم الجنة قال: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ . .

رضا الله إذا حصل هو أكبر من الجنة وما فيها . .

و الرضا صفة الله والجنة مخلوقةٌ . . وصفة الله أكبر من مخلوقاته كلها . .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ . .

رضا الله أكبر من الجنة . .!!!

١١- الرضا يخلّص العبد من سخط الناس . . لأن الله إذا رضي عن العبد أرضى عنه الناس . . والعبد إذا سعى في مرضاة الله لا يبالي بكلام الناس . .

أما المشكلة إذا سعى في مرضاة الناس فسيجد نفسه متعباً ؛ لأنه لن يستطيع إرضاءهم فيعيش في شقاءٍ . . أما من يسعى لرضا الله فلا يحسب لكلام الناس أي حسابٍ ولن يتعبَ نفسياً . . ولو وصل إليه كلام الناس فلن يؤذيَه نفسياً ولن يبالي مادام الله راضياً عنه . .

١٢- الله يعطي الراضي عنه أشياءَ لم يسألها ، ولا تكون عطايا الله نتيجة الدعاء فقط مادام في مصلحته . .

١٣- الرضا يفرّغ قلب العبد للعبادة . . فهو في صلاته خالٍ قلبُه من الوساوس . . في الطاعة غير مشتّت الذهن . . فيستفيد من العبادة . . الرضا يركّز ويصفّي الذهن فينتفع صاحبه بالعبادة . .

١٤- الرضا له شأنٌ عجيبٌ مع بقية أعمال القلوب الصالحة ، فأجره لا ينقطع وليس له حدٌّ بخلاف أعمال الجوارح ، فأجرها له حدٌّ تنتهي بمدّةٍ معينةٍ . . فعمل الجوارح محدودٌ . . لكن عمل القلب غير محدودٍ . .

فأعمال الجوارح تتضاعف على حدٍّ معلومٍ محسوبٍ . . أما أعمال القلوب فلا ينتهي تضعيفها وإن غابت عن بال صاحبها . . كيف؟؟!!

إنسانٌ راضٍ يفكّر بذهنه وقلبه أنه راضٍ عن الله وعن قضائه ، عرضت له مسألةٌ

حسابيّةٌ فانشغل ذهنه بها . . العلماء يقولون: أجر الرضا لا ينقطع وإن شُغِل الذهن بشيءٍ ثانٍ ؛ لأن أصله موجودٌ ولو انشغل القلب بشيءٍ ثانٍ الآن . .

إنسانٌ يخاف الله ، أحياناً يحصل له بكاءٌ ووجلٌ نتيجة هذا الخوف ، لو انشغل باله مع ولده يضمّد جراح ولده ونسي موضوع التأمل في الخوف وما يوجب البكاء والخشية فلازال أجره على الخوف مستمراً ؛ لأنه عملٌ قلبيٌّ مركوزٌ في الداخل لم ينتهِ أجره بل هو مستمرٌّ . . وهذا من عجائب أعمال القلوب .

وهذا يمكن أن يوضّح لماذا أجر أعمال القلوب أكثر من أجر أعمال الجوارح ، مع أنه لابد من أعمال الجوارح طبعاً . . لأنه إذا لم يكن هناك أعمال جوارح فالقلب خربٌ . .

هل الرضا يتنافى (يتعارض) مع الدعاء؟!!

لا . . لسبب أن الدعاء يرضي الله وهو مما أمر الله به . .

هل الإنسان إذا دعا أن يزيل الله عنه مصيبةً لا يكون راضياً؟!!

الجواب: لا . . ليس هكذا . . لأن الله قال: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ .

و قال: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ يدعون ربهم يريدون نعماً ودفعَ نقمٍ .

الدعاء لجلبِ منفعةٍ أو دفعِ مضرّةٍ . . فلأن الله قال: ادعوني ولأن الدعاء يرضي الله ، فإن الدعاء لا يتعارض مع الرضا . .

فالمرء لو كان راضياً بالمعصية وسأل الله أن يزيل أثرها أو يعوّضه خيراً ، لم يعارضِ الدعاءُ الرضا . . لأن الله أمرنا أن نسأله الرزق فقال: ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾[1] . .

هل الرضا يتنافى مع البكاء على الميّت؟!!

قال شيخ الإسلام: (البكاء على الميت على وجه الرحمة حسنٌ مستحبٌّ وذلك لا ينافي الرضا ، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه) . . وبهذا يُعْرَف قوله ﷺ لما بكى على الميت: «**إن هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء..**» .

---

(١) العنكبوت: ١٧ .

و ينبغي أن نفرّق ؛ لأن النبي ﷺ لما رأى ولده إبراهيم يموت بكى لماذا بكى؟ . . رحمةً أو تأسّفاً على فقد الولد!! . .

و إن هـذا ليس كبكاء من يبكي لحظّه إلا لرحمة الميت ، فإن الفضيل بن عياض لما مات ابـنه علـي ضـحك وقـال: (رأيت أن الله قد قضى ، فأحببتُ أن أرضى بما قضى الله به) . . فحالـه حـالٌ حسنٌ بالنسبة لأهل الجزع ، وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله على كل حالٍ كما قال ﷺ فهذا أكمل . .

فإذا قيل: أيهما أكمل: النبي ﷺ بكى رحمةً بالميت أو الذي من السلف ضحك؟؟!!

بكـاء رحمـة الميـت مـع حمد الله والرضا بالقضاء أكمل ، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ فذكر الله التواصي بالصبر ، و التواصي بالمرحمة . .

الناس أربعة أقسامٍ:

١- منهم من يكون فيه صبرٌ بقوةٍ (ما فيه رحمة) .

٢- ومنهم من يكون فيه رحمةٌ بقوةٍ (ينهار) .

٣- ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع (جمع الشر من الطرفين) .

٤- المؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس .

ومما يجب أن يعلم أنه لا يسوغ في العقل ولا في الدين طلب رضا المخلوقين بإطلاقٍ ؛ لوجهين:

١- أحـدهما أن هـذا غـير ممكـن ، كمـا قـال الـشافعي: (رضا الناس غايةٌ لا تُدْرَك) ، فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه ودع ما سواه ولا تعانِه .

٢- أنـنا مأمـورون أن نتحـرّى رضـا الله ورسـوله ﴿ وَاللَّـهُ وَرَسُـولُهُ أَحَـقُّ أَن

يُرْضُوهُ ﴾[١] .

نحن مكلّفون أن نرضي الناس كلهم؟!!

لا ، لسنا مكلّفين ؛ لسببين:

١- لأنه غير ممكنٍ .

٢- لأننا مكلّفون بإرضاء الله وليس بإرضاء الناس . .

ذكر السلف رحمهم الله أقوالاً في الرضا:

١- قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (إن الله إذا قضى قضاءً أحبَّ أن يُرضى به من قِبَل العباد) . .

٢- قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إن الله بقسطه وعدله جعل الرَّوح والفرح في اليقين والرضا وجعل الهمّ والحزن في الشكّ) . .

٣- قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (أصبحتُ وما لي سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر) .

فينعكس هذا على نفسه انشراحاً وطمأنينةً ، ومن وصل إلى هذه الدرجة كان عيشه كله في نعيمٍ وسرورٍ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ .

٤- قال بعض السلف: (الحياة الطيبة هي الرضا والقناعة) . .

٥- قال عبد الواحد بن زيدٍ رحمه الله: (الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا و مُستراح العابدين . . وربما رضي المبتلى حتى لم يَعُدْ يشعر بالألم . .

عذابُـــــه فـــــيك عـــــذبُ ::: و بُعْـــــدُه نَـــــيْلُ قُـــــرْبِ..!

٦- وكذلك قال عمر بن الخطاب لأبي موسى رضي الله عنهما: (أما بعد: فإن الخير كله في الرضا ، فإن استطعتَ أن ترضى وإلا فاصبر) . . هذا مما تقدّم أن الرضا منزلةٌ أعلى

---

(١) التوبة: ٦٢ .

من الصبر . .

٧- وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (إذا تُوُفِّي العبد المؤمن أرسل الله إليه مَلَكين وتحفةً من الجنة ، فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رَوْحٍ وريحانٍ وربٍّ عنكِ راضٍ) . .

٨- وقال ميمون بن مهران رحمه الله: (من لم يرضَ بالقضاء فليس لحمقه دواءٌ) . .

٩- ونقل عبد الله بن المبارك رحمه الله عبارة: (يا بنيّ إنما تستدلّ على تقوى الرجل بثلاثة أشياءٍ: لحُسْن توكله على الله فيما نابَه ، ولحُسْن رضاه فيما آتاه ، ولحُسْن زهده فيما فاته) . .

منزلة الرضا هي التي تثمر محبة الله والنجاة من النار والفوز بالجنة ورضوان الله وحُسْن ظنّ العبد بربه والنفس المطمئنّة والحياة الطيبة . .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

درجات الوصول إلى تحقيق الرجاء:

١- ذكر سوابق فضل الله على العبد ، أن الله له علينا فضائل سابقة . .

٢- ذكر وعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرمه وجوده بدون سؤال من العبد استحقاق فإن الله يعطي بدون أن يكون العبد مستحقاً إذا استقام الإنسان .

٣- أن تذكر نعم الله عليك في أمر دينك وبدنك ودنياك في الحال(الآن) وأن يمدك بالألطاف والنعم من غير استحقاق ولا سؤال .

٤- ذكر سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه وأنه الرحمن الرحيم الغني الكريم الرؤوف بعباده المؤمنين لذلك تحقيق الرجاء يقوم على معرفة أسماء الله وصفاته .

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض لابد لها من بذر وكذلك لابد للقلب من طاعات والأرض لابد لها من تعاهد وسقي بالماء وحفر أنهار

وسوق الماء إليها وكذلك القلب لابد له من تعاهد وأن يسقى بماء الطاعة والعبادة وكذلك الأرض تحتاج حتى تنبت إلى صيانتها عن الأشياء الضارة، وترى المزارع ينتقي الدغل فينتزعه من أرض حتى لايؤذي زرعه والمؤمن ينقي قلبه من أي شبهة وشهوة حتى لا تفسد عليه زروع الطاعة التي سقاها بماء العبودية . .

وقلّ أن ينفع إيمان مع خبث القلب كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة إذاً ينبغي أن يقاس رجاء العبد برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى بذراً جيداً وسقى وتعاهدها بالرعاية ثم جلس ينتظر فضل الله . . ، انتظار هذا يسمى رجاءً، أما إن بذر في أرض سبخة مرتفعة لا يصلها الماء، هذا غبي أحمق، أما إن بذر في أرض طيبة ولكن لا يصلها الماء وقال أنتظر المطر . ، انتظار هذا تمنّي وليس رجاء . .!

الرجاء يصدق على انتظار محبوب تمهّدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس في اختيار وإرادة العبد . .

لذلك فالإنسان يبذل من الطاعات والعبادات وينتظر فضل الله أن يثبته وأن لا يزله ولا يزيغه حتى الممات ولا يضله حتى يلقاه وهو راضٍ عنه .

الراجي إنسان عنده مواظبة على الطاعات قائم بمقتضيات الإيمان، يرجو من الله أن لا يزيغه وأن يقبل عمله ولا يردّ عليه، وأن يضاعف أجره ويثيبه، فهو باذل للأسباب التي يستطيعها يرجو رحمة ربه، ولذلك يكون الذي يقطع البذور ولا يتعاهدها بماء الطاعات أو يترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق منهمكاً في لذات الدنيا ثم يطلب المغفرة يكون حمقاً وغروراً ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[1]

والكافر صاحب الجنة قال ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴾[2]،

(١) الأعراف: ١٦٩ .
(٢) الكهف: ٣٦ .

فهو صاحب أماني ولا أعمال صالحة عنده ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾[1] . . !

أنواع الرجاء:

الرجاء ثلاث أنواع، نوعان محمودان ونوع غرور مذموم . .

١- رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فماذا يرجو؟ ثواب الله . .

٢- رجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها فماذا يرجو؟ يرجو مغفرة الله ومحو الذنوب والتجاوز عنها وسترها . .

٣- رجل متمادي في التفريط والمعاصي والسيئات ويرجو رحمة ربه والمغفرة بلا عمل!! فهذا غرور وتمني ورجاء كاذب لا يعتبر رجاء محموداً أبداً . .

والمؤمن عندما يسير إلى الله له نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله من العجب والرياء والاغترار بالعمل وهذا يفتح عليه باب الخوف من الله، وينقله بعد ذلك إلى سعة كرم الله وفضله وبره ومغفرة ذنوبه ويفتح له باب الرجاء، وهذا هو النظر الثاني ولهذا قيل في حد الرجاء وتعريفه هو النظر إلى سعة رحمة الله عزوجل ولابد من الموازنة بين الخوف والرجاء كما قال العلماء: (العبد في سيره إلى الله كالطائر يطير بجناحين، جناحي الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم طيرانه وإذا نقص أحدهما اختلّ نوعاً ما وإذا ذهب الجناحان صار الطائر في حدّ الموت)، ما هما الجناحان في سير العبد إلى ربه؟ هما الخوف والرجاء.

وقد سُئِل أحمد بن عاصم رحمه الله: ما علامة الرجاء في العبد؟ قال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان أُلهِم الشكر راجياً لتمام النعم عليه في الدنيا والآخرة وتمام عفوه عنه في الآخرة . .

هنا علماء القلوب أصحاب النظر والتأمل في الأمور الإيمانية اختلفوا . . ، أي الرجاءين أعظم . .؟ رجاء الثواب والأجر من المحسن؟ أو رجاء المغفرة من التائب المسيء؟!!!

فرجحت طائفة رجاء المحسن لقوة أسباب الرجاء معه، فعنده طاعات وأسبابه قوية

---

(١) فصلت: ٥٠ .

فيرجو على حقّ، والأخرى رجحت رجاء المذنب لأن رجاءه من انكسار ومسكنة مقرون بذلة رؤية الذنب واستحضار المعصية خالص من العجب والاغترار بالعمل، الحاصل أم كلا القولين له حظ من النظر، فكلا الرجاءين محمود ولابد من تحصيلهما معاً ولا يستغنى بهذا عن هذا، لأن المسلم إما أن يكون في طاعة يرجو قبولها أو معصية يريد غفرانها ومحوها.

أسباب قوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبت رحمته غضبه، ولولا روح الرجاء لتعطلت عبودية القلب والجوارح وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً..، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر إرادات العبد وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء(العلاقة بين المحبة والرجاء) وكل محب راجٍ خائف بالضرورة فهو يرجو من يحبه أن يعطيه ما ينفعه ويخاف أن يسقط من عينه وأن يطرده وأن يبعده ويحتجب عنه لذلك خوف المحب شديد ورجاؤه عظيم، لكن هل إذا وصل إلى محبوبه ينتهي الرجاء أم لا..؟!! أم يشتد..؟!! وماذا يحصل له بالموت..؟!!

المؤمن قبل الموت عنده رجاء وخوف عظيمين، أما إذا مات قالوا أن خوفه ورجاؤه ذاتي للمحبة، يرجو ربه قبل لقائه والوصول إليه فإذا لقيه ووصل إليه بالموت اشتد الرجاء له بما يحصل له بهم من حياة روحه ونعيم قلبه من الألطاف، فالرجاء بما عند الله يزداد، وعنده أعمال صالحة يريد عليها الأجر والثواب والخوف أيضاً يزيد لأن الموت قرّبه إلى النار، والقبر أول منازل الآخرة، فقد دخل إلى المرحلة الخطيرة جداً..

لذلك لا يمكن أن تقول أن الميت تنقطع مشاعره بل يمكن أن تعظم!! مشاعرهم متضاعفة لأنهم اقتربوا إلى دار الخلد.. إلى نعيم أو عذاب.. فيمكن أن تكون بهذا في القبر فمن الآن زّود نفسك بالطاعات واترك المعاصي لتزيد عندك أسباب الرجاء وتأمن في القبر، الخوف في القبر مصيبة، إذ يخاف من سوء المطلع والذي يمكن أن يرتكس فيه إذا قامت الساعة ويدخله من عذاب الله فإذاً الآن هو الآن يشتد في العمل حتى إذا لقي الله صار طلبه للجنة وأمن الخوف..

الكفار ما حالهم في قبورهم..؟

آل فرعون، فرعون وجنوده، ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ معناها أنهم الآن في قبورهم خوفهم يتضاعف كل يوم!! وهم يعرفون في أي حفرة سيقعون فكيف الآن خوفهم وذعرهم..؟!! نسأل الله السلامة والعافية.

وإذا وصل العبد إلى ربه ولقيه ازداد رجاؤه إذا كان محسناً لأن الأجير إذا جاء وقت الراتب ازداد رجاؤه في الذي سيحصل عليه فإذا قدم العباد هؤلاء المحسنون على الله وكلما مضى زمن كلما ازداد رجاؤهم فيما سيحصلون عليه وينتظرونه في قبورهم «**ربي أقم الساعة**» كي يرجع إلى أهله ومال لأنه فتح له باب إلى الجنة في القبر فهو يأتيه من النعيم والطيب فيقال له: (اسكن ونم كنومة العروس لا يوقظه إلا أحب الناس إليه).

درجات الرجاء:

الرجاء درجات، درجة أرفع من درجة، ومراتب بعضها فوق بعض:

١- الدرجة الأولى:

رجاء يبعث العامل على الاجتهاد بالعبادة بل يولد عنده اللذة بالعبادة ولو كانت شاقة أو صعبة فيتلذذ بها ويترك المناهي، ومن عرف القدر المطلوب هان عليه ما يبذل فيه ومن رجا الأرباح العظيمة في سفره هانت عليه مشقة السفر، كذلك المحب الصادق الذي يسعى في مرضاة الرب تهون عليه مشقة صلاة الفجر والوضوء في البرد ومشقة الجهاد ومشقة الحج والعمرة وطلب العلم وتكرار الحفظ وانتصاب الجسم في الليل وجوع الصيام..، بل تنقلب إلى لذّة..!!

فالدرجات العملية في التعبد لله: مشقة ومن ثم لذة، يقول أحد العلماء: " كابدت قيام الليل عشرون سنة ثم تنعمت به عشرين سنة"، فالمرء لا يصل أحياناً إلى لذة العبادة إلا بعد أن يذوق مشقتها، فإذا قوي تعلق الرجاء بالعوض سمحت الطباع بترك العادات وترك الراحة، فالإنسان مفطور أن لا يترك محبوباً إلا لمحبوب أعظم منه.

٢- الدرجة الثانية:

المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفاتها واستبدال مألوفات هي خير منها فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودهم بالهمة وهذا يلزم لـه العلم وهو الوقوع على الأحكام الدينية لأن رجاؤهم متعلق بحصول ذلك لهم ولابد من علم وبذل الجهد بالمعرفة والتعلّم وأخذ النفس بالوقوف عند الحدود طلباً وقصداً . .

٣- الدرجة الثالثة:

رجاء أرباب القلوب لقاء الخالق والاشتياق إليه سبحانه وتعالى وهذا الذي يمكن أن يزهّد الإنسان في الدنيا تماماً (أعلى الأنواع) ، ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** ﴾[1] ، ﴿ **مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ** ﴾[2] ، هذا الرجاء (اللقيا) محض الإيمان وزبدته وإليه تشخص أبصار العابدين المجتهدين وهو الذي يسليهم ولذلك ضرب الله لهم أجل تسكن إليه نفوسهم . .

عمير بن حمام الأنصاري لما ذكر لهم الرسول ﷺ : «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**» اشتاقت نفسه إلى لقيا الله فقال: «**لئن عشت حتى آكل هذه التميرات إنها لحياة طويلة**» فقاتل حتى قُتِل ولقي الله شهيداً . .

فلما علم الله شوق هذه الطائفة من عباده وهم الندرة والقلة وأن نفوسهم تضطرب حتى تلقها ؛ ضرب لهم موعداً تسكن إليه نفوسهم وتعمل حتى تقدم إلى الله .

سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله عن قول علي رضي الله عنه: (لا يرجون عبدٌ إلا ربه ولا يخافنّ إلا ذنبه) فقال: الحمد لله ، هذا الكلام يؤثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهو من أحسن الكلام وأبلغه وأتمه فإن الرجاء يكون للخير والخوف يكون من الشر والعبد إنما يصيبه الشر بذنوبه ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا**

---

(١) الكهف: ١١٠ .

(٢) العنكبوت: ٥ .

كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾[١] لذلك قال علي رضي الله عنه: (لا يخافن عبد إلا ذنبه) وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[٢].

فليخف الله وليتب من ذنوبه التي نالـه بها ما ناله كما في الأثر: «**يقول الله: أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي من أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشتغلوا بسبّ الملوك وأطيعوني أعطّف قلوبهم عليكم**».

فإن الراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر ولا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾[٣].

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾[٤].

والرجاء مقرون بالتوكل ، فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة ، والتوكل لا يجوز إلا على الله ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[٥] ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرم إن لم يكن في الدنيا ؛ في الآخرة حين يقال: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤونهم فاطلبوا منهم الأجر . .! ، ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[٦].

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً ﴾[٧].

---

(١) الشورى: ٣٠ .
(٢) الأنعام: ١٢٩ .
(٣) يونس: ١٠٧ .
(٤) فاطر: ٢ .
(٥) إبراهيم: ١٢ .
(٦) العنكبوت: ٤١ .
(٧) مريم: ٨١ .

فمن عمل لغير الله رجاء أن ينتفع بما عمل له كانت صفقته خاسرة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾[١].

فالذين كفروا أعماله كرماد اشتدت به الريح أي أصبح أخف من التراب في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء، ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾[٢] فكل عمل باطل إلا ما أريد به وجه الله ومن عمل لغير الله ورجاه بطل سعيه.

أنواع الرجاء من حيث الراجي:

الراجي يكون راجياً تارة بعمل يعمله لمن يرجوه، وتارة باعتماد قلبه عليه والتجائه إليه وسؤاله فذاك نوع من العبادة وهذا نوع من الاستعانة فإذاً ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٣].

لقد ورد الرجاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

١- بيان رجاء المؤمنين وهو الرجاء المصحوب بعمل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾[٤]، الذين صدقوا بالله ورسوله وما جاء به وتركوا ديارهم وأحبابهم وأوطانهم وتغربوا عن أمصارهم وتحولوا عن بيوتهم هجرة إلى اللخ وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم وقدموا وبذلوا وقاتلوا وحاربوا وتحملوا الجراحات وألم طريق الجهاد والمخمصة والجوع والظمأ والنصب؛ هؤلاء يرجون رحمة الله عنهم الله ويطمعون أن يرحمهم فيدخلهم جنته سبحانه وتعالى..

٢- الله عز وجل فتح باب الرجاء لعباده حتى في مغفرة أي ذنب كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ

---

(١) النور: ٣٩.
(٢) الفرقان: ٢٣.
(٣) الفاتحة: ٥.
(٤) البقرة: ٢١٨.

اللَّـــهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[١] فهـذه الآية قيل أنهـا نـزلت بعـد قـولـه تعـالى: ﴿ قُـــلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْـــنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾[٢] فقالوا لرسول الله ﷺ والـشرك؟ فكـره رسـول الله ذلـك فنزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ والمقـصود أن الله لا يغفـر للمشرك إذا مات على الشرك ، ولا يدخل المشرك تحـت المـشيئة وأمـا إذا تـاب المـشرك فإن الله يغفر لـه ذنبه حتى لو كان الشرك . . والآية في المشيئة وليست في نفي المغفرة عن التائب عن الشرك . .

٣- ﴿ قُـــل لِّمَـــن مَّـــا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَـــنَّكُمْ إِلَـــى يَـــوْمِ القِـــيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[٣] .

قال ابن جرير: قضى أنه بعباده رحيم فكيف تتمثل هذه الرحمة؟ قال: لا يعجل عليهم العقـوبة مـع أنهـم مـستحقون بـل يـصبر ويحلـم ويقـبل مـنهم الإنابة والتوبة فهذا يعلقهم بالـرجاء ﴿ وَإِذَا جَـــاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الـــرَّحْمَةَ أَنَّـــهُ مَـــنْ عَمِـــلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤] ، قال ابن جرير: فتأويل الكلام إذا كان الأمر على ما وصفنا وإذا جاءك يا محمد القوم الذين يصدقون بتنزيلنا وأدلتنا فيقرون بذلك قولاً وعملاً مسترشديك عن ذنوبهم التي سـلفت مـنهم بيني وبينهم هل لها من توبة؟ فلا تيأسهم منها وقل لهم سلام عليكم أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها أي عليكم الأمان لن يعاقبكم بعد توبتكم منها . . ، كتب ربكم على نفسه الرحمة أي قضى الرحمة بخلقه سبحانه وتعالى . .

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ

---

(١) النساء: ٤٨ .
(٢) الزمر: ٥٣ .
(٣) الأنعام: ١٢ .
(٤) الأنعام: ٥٤ .

عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾[١] .

قال ابن جرير: يعني جل ثناؤه بالعمل الصالح الذي خلطوه والعمل السيئ اعترافهم بذنوبهم وتوبتهم منها، والآخر السيء تخلفهم عن رسول الله ﷺ حين خرج غازياً عسى الله أن يتوب عليهم، وعسى من الله واجبة، يعني سيتوب فعلاً وحقاً .

٤- الرجاء مفتوح حتى في أمور الدنيا، يرجو مال، ولد، زواج، وظيفة، زوال مرض، وجود مفقود، فيعقوب عليه السلام علم أبناءه الرجاء حتى في المفقودات الدنيوية ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[٢] .

٥- قال ابن جرير: حين طمع يعقوب في يوسف قال لبنيه يا بني اذهبوا للموضع الذي جئتم منه وخلفتم أخويكم به ولا تيأسوا من روح الله ولا تقنطوا من أن يروّح الله عنا ما نحن فيه من الحزن ويفرّحنا برؤيتهما إنه لا ييأس من روح الله ولا يقنط من فرجه ورحمته ولا يقطع الرجاء منه إلا القوم الكافرون .

٦- ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[٣] فلا تيأسوا من رحمة الله أن الله يغفر لكم ذنوبكم كلها ولا يبقي منها شيئاً ولا نصفها ولا بعضها ولا الكبائر فقط وليس الخطاب للذين عندهم معاصي قليلة بل أسرفوا وكثرت معاصيهم وكبائرهم وصغائرهم، لا تقنطوا من رحمة الله، فهذا أمر من الله بالرجاء، فالكريم إذا أمر بالرجاء لا يليق به إلا الكرم، فابذل السبب، واستغفر وتب توبة حقيقية وامتنع عن الذنوب وأصلح واستقبل حياة نظيفة واندم على ما فات واعزم على أن لا تعود إليه

---

(١) التوبة: ١٠٢ .
(٢) يوسف: ٨٧ .
(٣) الزمر: ٥٣ .

٧- الحديث القدسي: «**يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**» هذا الرجاء العظيم الذي يفتحه الله عزوجل، هذا فتح باب الرجاء للعباد.

٨- إن الإنسان له عند الموت أحوال في الخوف والرجاء خاصة مبنية على حسن ظنه بالله: «**أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فليظن بي عبدي ما شاء**»، قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامل به، لذلك الثلاثة الذين خلفوا لما ظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه تاب الله عليهم، فبالنسبة للموت يجب أن نجهز أنفسنا لتلك اللحظات لتفيض أرواحنا ونحن نحسن الظن بالله، والرسول ﷺ قبل أن يموت بثلاث أيام أعطى الأمة هذه الوصية التي رواها مسلم: «**لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عزوجل**»، فهذا تحذير من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتمة..

لهذا بعض السلف كان يأمر بنيه عند الموت أن تقرأ عليه آية الرحمة؛ حتى تطلع روحه وهو محسن الظن بالله أن يغفر له ويرحمه ويتقبله ويستقبله بالإنعام، وكذلك فإن الإنسان إذا صدق بالتوبة ولو تكرر الذنب فإن الله يغفر له ما أذنب، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، قال: ألا أبشّر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا..

هذا دليل كما قال ابن رجب: قال العلماء: يؤخذ من منع معاذ من تبشير الناس لئلا يتكلوا أن أحاديث الرخص لا تشاع في عموم الناس لئلا يقصر فهمهم عن المراد بها، يقول ابن رجب: وقد سمعها معاذ فلم يزدد إلا اجتهاداً في العمل، وخشية لله عزوجل فأما من لم يبلغ منزلته فلا يأمن أن يقصر إتكالاً على ظاهر الخبر..

ومعاذ من العشرة المبشرين بالجنة، وفقيه لا يخشى عليه..

كذلك عثمان فقد قال عنه ﷺ: «**ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم**»، ماذا

فعل . .؟! ، لقد ازداد في الخير والبر والطاعات ، هذه النفوس الله يعلم لو بشرهم برضوانه فإنهم لن يتركوا الخيرولن ينتكسوا ، لذلك فأحاديث الرخص لا تشاع في عموم الناس ففيهم قلة فقه في الدين ويحتاجون عند التفريط إلى التخويف . .

ثم إن الشرك شرك أكبر وأصغر وخفي ، ومن الذين ينجو منه؟ ، ثم إن الحديث مقيد عند العلماء بالآيات والأحاديث الأخرى التي فيها التعذيب على المعصية ، وبعض العلماء حملوها على ترك دخول نار الشرك ، لأن جهنم فيها دركات(نار الشرك - نار الكبائر - نار المعاصي - . . .) حملوه حتى لا يفهم خطأ على أنه لا يدخل نار الشرك .

القاعدة العامة ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾[1] ، فالسلف خوفتهم هذه الآية جداً فلذلك كانوا يعملون ويخافون .

ومن أحاديث الرجاء التي تقال لإنسان مذنب تاب ، وبالرغم من التوبة صار عنده نوع من اليأس والإحباط ويرى ذنوبه كبيرة وليس هناك فائدة من العمل ، فهو كما يظن محكوم عليه بالنار: «**إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا فيقول نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى نفسه هلك قال سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**» .

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجل أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله: ﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾[2] فقال الرجل: ألي هذه؟ قال: لجميع أمتي كلهم (رواه البخاري ومسلم) .

تصريح أن الحسنات تكفر السيئات ، وهل هي حسنات معينة كالصلوات الخمسة؟ أو هي الحسنات مطلقاً كما قال العلماء وبعضهم بهذا وبعضهم بهذا . .

في مرض الموت قيل للشافعي كيف أصبحت يا أبا عبدالله؟ قال: أصبحت من الدنيا

---

(١) النساء: ١٢٣ .

(٢) هود: ١١٤ .

راحلاً ولأخواني مفارقاً ولكأس المنية شارباً ولا أدري ءإلى الجنة تسير روحي فأهنيها أم إلى النار فأعزيهاثم أنشأ يقول . .

ولما قسى قلبي ::: وضاقت مذاهبي
جعلت الرجا مني ::: لعفوك سلّما
تعاظمني ذنبي ::: فلما قرنته
بعفوك ربي ::: كان عفوك أعظم

«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[1] .

الرجاء دواء يحتاج لـه رجلان:

١- رجل غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة وجزم أنه ليس هناك فائدة . .

٢- رجل غلب عليه الخوف حتى أضرّ بنفسه وأهله ، فتعدّى خوفه الحد الشرعي المطلوب فلابدّ أن يعدّل ويمدّ بشيء يحدث موازنة وهو الرجاء الذي هو حالة طبيعية عند المؤمن .

فبعض الناس الكلام معه في الرجاء دواء ، أما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة لا ينفع معه أبداً دواء الرجاء ، ولو استعملت معه الرجاء لزدته ضلالاً . . ، لا ينفع له إلا دواؤ الخوف ، فيوعظ بسياط الخوف ويقرّع المنايا ، هذا المتمني المتساهل المفرط ، فلا يصلح معه أن تحدثه عن الرجاء ، وهذا أمر مهم ينبغي أن يتنبه له الوُعّاظ . .

قال بعض العلماء: (يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً معهم ناظراً إلى مواضع العلل معالجاً كل علة بما يليق بها وهذا الزمان لا ينبغي أن يستخدم فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل المبالغة في التخويف وإنما يذكر الواعظ فضيلة وأسباب الرجاء إذا كان المقصود استمالة القلوب إليه لإصلاح المرضى) ، التخويف ولكن بحيث لا تصل إلى تيئيسهم من رحمة الله . .

---

(١) فصلت: ٣٠ .

قال علي رضي الله عنه: «**إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ولا يأمّنهم مكر الله**» . .

لابد أن يكون هناك توازن وحسب حال الناس ، فإذا كانوا ميّالين إلى التفريط والمعاصي والتساهل غلّب التهويف وإذا كان عندهم خوف زائد ويأس من رحمة الله غلّب الرجاء .

ثمرات الرجاء:

١- يورث طريق المجاهدة بالأعمال .

٢- يورث المواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال .

٣- يشعر العبد بالتلذذ والمداومة على الإقبال على الله والتنعّم بمناجاته والتلطف في سؤاله والإلحاح عليه .

٤- أن تظهر العبودية من قبل العبد والفاقة والحاجة للرب وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين .

٥- أن الله يحب من عباده أن يسألوه ويرجوه ويلحّوا عليه لأنه جواد كريم أجود من سُئِل وأوسع من أعطي وأحب ما إلى الجواد الكريم أن يسأله الناس ليعطيهم ومن لا يسأل الله يغضب عليه والسائل عادة يكون راجٍ مطالب أن يُعطى فمن لم يرجو الله يغضب عليه ، فمن ثمرات الرجاء التخلّص من غضب الرب .

٦- الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سيره إلى الله فيطيب المسير ويحث على السير ويبعثه على الملازمة ، فلولا الرجاء بـ(المضاعفة - رحمة الله - الأجور والثواب المضاعف - الجنة والنعيم) ما سار أحد ، والقلب يحركه الحب ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء .

٧- يطرح على عتبة محبة الله عزوجل ويلقيه في دهليزها فكلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ؛ ازداد حباً لربه وشكراً له ورضا ، وهذا من مقتضيات وأركان العبودية .

٨- الرجاء يبعث العبد على مقام الشكر لأنه يحفزه للوصول إلى مقام الشكر للنعم وهو خلاصة العبودية .

٩- الرجاء يوجب المزيد من التعرف على أسماء الله وصفاته .

الخوف مستلزم للرجاء والرجاء مستلزم للخوف عند المؤمن ، لأن كل خائف راجي وكل راجي خائف ، ولهذا حسن وقوع الرجاء في مواضع يحسن فيه وقوع الخوف ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾[١] . . قال المفسرون: مالكم لا تخافون لله عظمة ، فكل راجٍ خائف من فوات مرجوّه ، هذا يفسّر لنا كيف أن الرجاء مرتبط بالخوف وأن الراجي خائف أن يفوت مطلوبه ورحمة الله وجنته .

انظر إلى التداخل العجيب بين مقامات الإيمان في قلب المؤمن ، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط . .!!!

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾[٢] أي لا يخافون وقائع الله بهم كما وقعت في الأمم الذين من قبلهم من التدمير والإهلاك .

ثم إن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه فحصل المطلوب يحصل مزيد من التشجّع وسؤال المزيد والإقبال على الله وهكذا لا يزال العبد في ازدياد في الإيمان والقرب من الرحمن .

على قدر رجاء العباد وخوفهم يكون فرحهم يوم القيامة بحصول المرجو الأعظم وهو نيل رضا الرب والجنة ورؤية الله فيها .

وكذلك فإن الله يريد من العبد أن يكمل نفسه بمراتب العبودية من الذل والانكسار لله والتوكل عليه والاستعانة به والخوف منه والصبر على أقداره والشكر له وعلى إنعامه ولذلك يقدر الذنب على العبد لتكمل مراتب العبودية عند العبد فيستغفر العبد ، فلولا الذنب ما حصل انكسار ولا توبة ، يبتليهم بالذنوب ليعالج ما في قلوبهم بالانكسار وطلب

---

(١) نوح: ١٣ .
(٢) الجاثية: ١٤ .

التوبة فينكسر بين يدي الله فيتحقق معنى مهم جداً جداً من معاني العبودية . .!!

كيف تتحقق العبودية إذا لم يكن هناك انكسار وذل وخضوع . .؟!! ، أحياناً لا يصدر الإنكسار والذل هذا إلا بذنب يتوب منه العبد ويعرف تقصيره والبلية التي وقع فيها وحجم المعصية .

الرجاء فيه انتظار وترقّب وتوقع لفضل الله عزوجل فيتعلق القلب أكثر بخالقه . .

ولابد من الجمع بين الخوف والرجاء .

* * * * *

obeikandl.com

المبحث السادس:

اليقين

لليقين معنيان وإن شئت فقل: هو معنى واحد منظور لـه من جهتين:

١ - اليقين من حيث هو أصل للإيمان، إذ لا إيمان مع الشك.

٢ - اليقين من حيث هو درجة عليا من درجات الإيمان.

فبالنظر للمعنى الأول يكون كل مؤمن موقناً وإلا لم يستحق اسم الإيمان وبالنظر للمعنى الآخر - ليس كل مؤمن موقناً، بل الموقنون طائفة خاصة من المؤمنين.

فأما اليقين بالمعنى الأول فهو شرط من شروط شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أي أن الإيمان المجمل - قول القلب واعتقاده - لا يتحقق إلا به، فمن شك في الله أو في رسوله وما جاء به عن الله، فهو كافر لا شهادة لـه ولا إيمان.

بذلك أخبر الله تعالى عن الكفار حين قالوا لرسلهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1].

وأخبر أنهم إذا طلب منهم الإيمان بالبعث قالوا: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[2].

لكن إذا كان يوم القيامة يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[3].

ولهذا جاء في وصف القرآن أكثر من مرة بأنه (لا رَيْبَ فِيهِ).

وفي حديث جابر رضي الله عنه يقول: أنا من شهد معاذاً حين حضرته الوفاة، يقول:

---

(١) إبراهيم: ٩، ١٠.
(٢) الجاثية: ٣٢.
(٣) السجدة: ١٢.

اكشفوا عني سجف القبة، أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، لم يمنعني أن أحدثكموه إلا أن تتكلوا، سمعته يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه – أو: يقيناً من قلبه – لم يدخل النار، أو دخل الجنة – وقال مرة – دخل الجنة ولم تمسه النار**»[(١)].

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه – في قصة تبوك – أن النبي ﷺ قال: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة**» وفي رواية: «**فيحجب عن الجنة**»[(٢)].

وعنه في حديث آخر أن النبي ﷺ قال له: «**اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة**»[(٣)].

وهذا اليقين – بهذا المعنى – هو حقيقة العلم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومن ثَم ذكر بعض العلماء العلم شرطاً مستقلاً من شروط الشهادتين مستدلين بقوله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾[(٤)].

وقول النبي ﷺ: «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**».

وعقد الإمام البخاري باباً بعنوان: باب قول النبي ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله وأن المعرفة فعل القلب**»، لقوله تعالى: ﴿ ولَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾[(٥)] ثم روى حديثاً آخره: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**».

لكن لم أر أن أفرده هنا – أي: العلم – لأن الحديث عن اليقين يشمله ويتضمنه ولأن الحديث عن ضده؛ وهو الجهل بالتوحيد – كلياً أو جزئياً – يحتاج لتطويل يخرج عن دائرة موضوعنا هنا.

وأما اليقين بالمعنى الآخر – أي: اليقين الدرجة – فهو لب الإيمان وخلاصته وزبدته،

---

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) محمد: ١٩.
(٥) البقرة: ٢٢٥.

كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: "اليقين الإيمان كله" وفي المسند: «**أفضل الأعمال عند الله إيمان لا شك فيه وغزو لا غلول فيه وحج مبرور**» .

وهو يقابل الإيمان الكامل المفصل ، كما أن ذاك يقابل الإيمان المجمل ولهذا جاء في القرآن شرطاً للإمامة في الدين ، فقال تعالى: ﴿ وجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[١] .

ومن ارتباطه بالصبر قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾[٢] .

وأخبر الله تعالى عن إمام الموحدين ، فقال: ﴿ وكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ولِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾[٣] .

فقد كان الإيمان متحققاً عنده ، كما أخبر الله عنه في الآية التى قبلها: ﴿ وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾[٤] فرقاه الله إلى درجة اليقين ، مثلما كان مؤمناً بأن الله يحيى الموتى لكن طلب الرؤية لتحصيل الطمأنينة التي هي برد اليقين .

وهذا اليقين هو الذي عبر عنه بعض السلف بقوله: "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً" .

وقال الآخر: "رأيت الجنة والنار حقيقة ، قيل له: كيف؟ قال: رأيتهما بعينى رسول الله ورؤيتى لهما بعينيه آثر عندي من رؤيتى لهما بعينى ، فإن بصري قد يطغى ويزيغ ، بخلاف بصره ﷺ" .

واليقين بهذا المعنى نظير الإحسان الوارد في حديث جبريل ، لكن الإحسان في عمل

---

(١) السجدة: ٢٤ .
(٢) الروم: ٦٠ .
(٣) الأنعام: ٧٥ .
(٤) الأنعام: ٧٤ .

الجوارح واليقين في عمل القلب والله أعلم .

فاليقين في الجملة متعلقة الاعتقاد ، وذلك أن مجمل الإيمان القلبي هو الإيمان بالغيب فإذا رسخ هذا الإيمان وارتقى عن الشكوك حتى يصبح كالمعاينة فهو اليقين .

ولهذا جاء أعظم الغيبيات - بعد الإيمان بالله - وهو الإيمان بالآخرة مقروناً باليقين أكثر مما سواه ، فقال تعالى: ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ في أول البقرة والنمل ولقمان .

فإن الإيمان بالآخرة - مع دلالة الفطرة السوية والعقل السليم عليه - ليس في قوة الإيمان الفطري بالله ، كما أن تفصيلاته مصدرها الوحي وحده .

واليقين نوعان:

١- يقين في خبر الله .

٢- يقين في أمر الله الشرعي والكوني .

فاليقين بخبر الله هو الإيمان بصدقه وتحققه ووقوعه - إن كان مما له الوقوع - إيماناً لا شك فيه وهذا هو الإيمان بالغيب يقيناً ومن الأدلة عليه قوله تعالى: ﴿ وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى ولَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[1] فطلب الخليل من ربه مثالاً للبعث يزيد إيمانه حتى يصبح يقيناً خالصاً ، وقريب منه طلب الحواريين المائدة ، فمع إيمانهم بقدرة الله طلبوا ما تطمئن به قلوبهم كذلك .

وهذا اليقين قد بلغ ذروته النبي ﷺ ليس فيما أخبر الله به من أمور الدين والإيمان فحسب ، بل في كل خبر ووعد حتى إنه ﷺ كان موقناً بأن الله سينصره ويظهره على العالمين ، وهو ما يزال في أقسى مواقف الاضطهاد والتشريد والأذى ، ولم يستبطئ النصر كما استبطأه رسل من قبله فقالوا: ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾[2] ولم يستيئس كما استيأس بعضهم .

---

(١) البقرة: ٢٦٠ .

(٢) البقرة: ٢١٤ .

وأما اليقين بأمر الله، فهو امتثاله برضا وطمأنينة وتسليم إن كان شرعياً، والرضا به والتسليم إن كان كونياً.

وذروته ما فعله إمام الموحدين من الامتثال لذبح ابنه الوحيد، وما فعله النبي ﷺ في مواقف من أعظمها يوم الحديبية حين قال: «**إني عبد الله، لن أخالف أمره ولن يضيعني**» أو نحوها.

وهذا في حقيقته هو الاستسلام لحكمه استسلاماً يرتقى لدرجة الإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[1].

وهو تحقيق دين الإسلام، وشهادة أن لا إله إلا الله التي هي العروة الوثقى، كما

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾[2].

و مع قوله: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾[3].

ولهذا جاءت الآيات المحكمات الدالة على اتباع شريعة الله والتحاكم إليها وحدها مذيلة بوصف اليقين لمن امتثل، فدل على شك من خالف وارتيابه.

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ

---

(١) النساء: ٦٥.
(٢) لقمان: ٢٢.
(٣) البقرة: ٢٥٦.

اللَّـهُ إِلَـيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1].

وقال جل ذكره: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[2].

فكما سبق بيانه من أن تحكيم شرع الله هو الإسلام، فإذا بلغ من العبد إلى حد انتفاء الحرج والمعارضة بالرضا الكامل فهو الإحسان، فكذلك اعتقاد بطلان ما عداه وأنه وحده الحق الذي لا أحسن منه ولا أهدى هو درجة الإسلام، فإذا رسخ هذا حتى لا تزعزعه شبهة ولا يعتريه شك فهو اليقين.

وقد ضرب الصحابة - رضى الله عنهم - من اليقين في أمر الله أعظم الأمثال، مما لا يتسع المقام للتطويل به، وحسبك أن ينزل الله تحريم الخمر والقوم مدمنون على شربها، مدخرون لها، مغالون في أثمانها، فما يكاد الأمر ينزل حتى تسيل بها أزقة المدينة أنهاراً!!

وأن ينزل الله الأمر بالحجاب والقوم مختلطون متعارفون، فما يكاد ذلك يبلغهم حتى تغدو نساؤهم كأنهن الغربان.

فهاتان عادتان إحداهما نفسية والأخرى اجتماعية وهما من أشد العادات وطئاً وأشقها تغييراً، تذهبان دفعة واحدة وتستأصلان من أعماق النفوس في لحظة واحدة، وما ذلك إلا باليقين الذي ليس وراءه في الأمم يقين.

* * * * *

(١) المائدة: ٤٨ - ٥٠.
(٢) الجاثية: ١٨ - ٢٠.

المبحث السابع:
الشكـر

تعريف الشكر:

وردت تعـريفـات للـشكر عديـدة ، وأوصـاف كـثيرة ، ومعـانٍ لطيفة ، ومن تعريفاته اللغـوية قـول الراغب الأصفهاني: "الشكر تصور النعمة وإظهارها ، وقيل: هو مقلوب عن الكَـشْر أي الكـشف: ويُـضاده الكفـر الذي هو نسيان النعمة وسترها . وقيل أصله من عَينٍ شَكْرَى أي ممتلئة ، فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذِكْر المُنْعِمِ عليه" .

قـال ابـن مـنظــور: "الـشكر عرفان الإحسان ونشره ، وهو مأخوذ من قولك: شكرت الإبـل تشْكُر إذا أصابت مرعى فسمنت عليه ، والشُكران خلاف النُكران ، والشكر من الله: المجـازاة والثـناء الجمـيل ، ويُقـال: شَـكَرَه وشَـكَر لــه يـشكُرُ شُكْرًا وشُكْرانًا ، ويقال أيضًا: شكرت الله ، وشكرت لله ، وشكرت بالله ، وكذلك شكرت نعمة الله ، ورجلٌ شكورٌ ، كثير الشكر ، وهو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته وأدائه ما وظّف عليه من عبادته" .

الشكر في الاصطلاح:

قال الكفوي: "الشكر كل ما هو جزاءٌ للنعمة عرفًا ، وقال أيضًا: أصل الشكر: تصور النعمة وإظهارها ، والشكر من العبد: عرفان الإحسان ، ومن الله المجازاة والثناء والجميل" .

وقال المناوي: " الشكر: شُكْران ، الأول شكر باللسان وهو الثناء على المنعم ، والآخر شـكر بجميع الجوارح ، وهو مكافأة النعمة بقدر الاستحقاق ، والشكور الباذل وسعه في أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه اعتقادًا واعترافًا" .

وقـال ابـن القيــم - رحمــه الله -: " الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافًا ، وعلى قلبه شهودًا ومحبة ، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة " .

معاني الشكر:

قـال صاحب المنازل: " ومعاني الشكر ثلاثة أشياء: معرفة النعمة ، ثم قبول النعمة ، ثم

الثناء بها " .

وقد شرح ابن القيم هذا الكلام بقوله: " أما معرفتها: فهو إحضارها في الذهن ، ومشاهدتها وتمييزها .

فمعرفتها ، تحصيلها ذهنًا ، كما حصلت له خارجًا ، إذ كثير من الناس تحسن إليه وهو لا يدري ، فلا يصح من هذا الشكر .

قوله: " ثم قبول النعمة " .

قبولها: هو تلقيها من المنعم لإظهار الفقر والفاقة إليها ، وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه ، ولا بذل ثمن ، بل يرى نفسه فيها كالطفيلي ، فإن هذا شاهد بقبولها حقيقة .

قوله: " ثم الثناء بها " .

الثناء على المنعم المتعلق بالنعمة نوعان: عام ، وخاص ، فالعام: وصفه بالجد والكرم والبر والإحسان ، وسعة العطاء ، ونحو ذلك .

والخاص: التحدث بنعمته ، والإخبار بوصولها إليه من جهته ، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1] .

وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة ، والإخبار بها ، وقوله: أنعم الله عليّ بكذا وكذا ، قال مقاتل: يعني اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتم ، والهدى بعد الضلال ، والإغناء بعد العيلة .

والتحدث بنعمة الله شكر ، كما في حديث جابر مرفوعًا: «**من صُنِع إليه معروف فليَجْزِ به، فإن لم يجد ما يجزي به فليُثْنِ؛ فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثوبي زور**» .

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها ، والجاحد لها ، والكاتم لها ، والمظهر أنه

---

(١) الضحى: ١١ .

من أهلها وليس من أهلها ، فهو مُتحلٍّ بما لم يُعْطَه .

وفي أثر آخر مرفوع: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب**» .

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته ، وتعليم الأمة ، قال مجاهد: هي النبوة ، قال الزجاج ، أي بلِّغ ما أرسلت به ، وحدث بالنبوة التي آتاك الله ، وقال الكلبي: هو القرآن ، أمره أن يقرأه .

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[1] .

فالشكر لله اعتراف بفضله ، واحترام لكرمه ، وإجلال لنعمه ، وثناء على عطائه ، واعتراف بجميله ، وإن ظهور أثر النعمة ، وجلاء لطيف المنّة ، ووضوح فضل المتفضل بالثناء عليه ، والمحبة له ، واستعمال ما أعطى فيما يحب ، والانقياد لأمره ، والرضى بحكمه . معرفة مصدر النعمة شكر ، والثناء عليها شكر ، وتوجيهها في الطاعة شكر ، ومشاهدة المنّة بها شكر ، وحفظ حرمات المنعم شكر ، وامتلاء القلب بمحبته شكر ، ولهج اللسان بذكره شكر ، والتسبيح بحمده شكر .

الشكر يزيد النعم ، ويزيل النقم ، ويُبلِّغ المنى . إن الإيمان نصفان نصف شكر ونصف صبر ، بل قد لا يبعد الأمر إذا قلنا إن الدين كله شكر ، فمن شُكْر الله الاعتراف بوحدانيته ، والإيمان برسله ، والصلاة شكر ، والزكاة شكر ، والصوم شكر ، والحج شكر ، والذكر شكر ، والعابد لله حقًّا شكر: ﴿وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[2] .

وقرن عبادته تعالى بالشكر فقال: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وترك الشكر كفر: ﴿وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾[3] ، وإبراهيم - عليه السلام - كان أمة قانتًا

---

(١) البقرة: ١٧٢ .
(٢) النحل: ١١٤ .
(٣) البقرة: ١٥٢ .

لله حنيفًا ولم يك من المشركين ؛ لأنه كان شاكرًا لأنعم ربه وأجلها نعمة التوحيد: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١] وامتدح الله نوحًا لأنه ﴿ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾[٢]، بل إن الله جل وعلا خلق الخلق وأوجدهم ليشكروه: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٣].

ومن أسمائه جل وعلا شاكر وشكور ، ويحب لعباده أن يتصفوا بهذه الصفة الربانية ، والسمة الإلهية ، ولقد ورد في آية واحدة الحث على الشكر وبيان أن الله تعالى شاكر عليم ، وتلك فيها لفتة كريمة ، ولطيفة بديعة ، وكأنه تعالى يقول: إذا أمرتكم بالشكر فامتثلوا الأمر فإنها رتبة رفيعة ، ودرجة عالية ، ولذلك كانت من أسمائي وصفاتي وأنا أحبها لعبادي ، وأدفع عنهم بها العذاب: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾[٤].

الشكر يرضاه الرب ، ويحبه المولى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[٥] والشاكر سعيه مأجور وعمله مشكور: ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾[٦].

الله جل وعلا هدى الناس لعلهم يشكرون ، وأتم نعمته عليهم لعلهم يشكرون ، وبيَّن آياته للناس لعلهم يشكرون ، ورزقهم من الطيبات لعلهم يشكرون ، وسخر لهم ما في الأرض جميعًا منه لعلهم يشكرون ، وخلق البحر وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وجعل للناس السمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون .

إن نعم الله العظيمة ، وآلاءه الكريمة ، ومنه المتتالية ، وأفضاله المتتابعة ، قد يسرها جميعًا للناس ، ووهبها للبشر ليقوموا بشكره ، ويسبحوا بحمده ، ويعترفوا بفضله ، فله الحمد

---

(١) النحل: ١٢٠ ، ١٢١ .
(٢) الإسراء: ٣ .
(٣) النحل: ٧٨ .
(٤) النساء: ١٧٤ .
(٥) الزمر: ٧ .
(٦) الإنسان: ٢٢ .

والشكر في الأولى والآخرة .

ومن عظمة العزيز الشكور ، وفضل الرحيم الغفور ، أنه يجعل الشاكر مشكور ، انظر إلى بديع لطفه ، وعظيم فضله ، وواسع عطائه ، هو الذي خلقك ، وهو الذي رزقك ، وهو الذي هداك للإيمان ، وجملك بالإسلام ، وأعانك على ذكره ، ووفقك لشكره ، فكل الفضل والمن والثناء والحمد والشكر له جل وعلا ، ولكن مع ذلك فمن تمام نعمته ، وعظيم بره ، ووافر كرمه ، ولطيف جوده ، أن ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة ، ويوفقك إلى الثناء عليها ، ويرضى عنك ، ثم يعيد إليك منفعة شكرك له ويجعله سببًا لتوالي نعمه عليك ، واتصالها إليك ، ويمن عليك بالزيادة في الدنيا ، والمغفرة في الآخرة ، فهو يحب منك الشكر ، ويرضاه لك ، ويثيبك عليه ، ومنفعته لك ، وثمرته لك ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾[1] ، فشكرك له إحسان منك إلى نفسك ، وتفضل منك على ذاتك في الدنيا والآخرة ، هو غني عنك ، غير محتاج إليك ، فهو المنعم المتفضل الخالق للشكر والشاكر وما يُشكر عليه ، ولا يستطيع أحد أن يكافئ نعمه ، ويقابل إحسانه ، ويحصي ثناءً عليه ، وإنَّ شُكْرك له نعمة منه تحتاج إلى شكر منك .

إقرأ وكن من الشاكرين .

كان في بني إسرائيل ثلاثة رجال: أبرص وأقرع وأعمى . وكان كل منهم يدعو الله أن يزيل ما به من مرض وأن يرزقه المال ، فاستجاب الله لهم ، وبعث إلى الأبرص مَلَكًا وضع يده على جلده ، فأصبح حسن اللون ، وأعطاه ناقة عُشَرَاءَ ولدت وأصبح لها نسل كثير حتى صار غنيا . وذهب المَلَك إلى الأقرع فمسح رأسه فشفاه الله ، وأعطاه بقرة حاملا فولدت ، وصار له قطيع من البقر .

ثم ذهب الملك إلى الأعمى فوضع يده على عينه ، فشفاه الله ، وأعطاه الملك شاة وولدها فولدت له حتى صار له قطيع من الغنم ، وبعد فترة ، جاء إليهم الملك ليختبرهم ، هل يشكرون الله - سبحانه - ، ويتصدقون على الفقراء أم لا؟

---

(١) النمل: ٤٠ .

فذهب إلى الأبرص ثم ذهب إلى الأقرع ، فلم يعطياه شيئًا ، وقالا لـه: إنا ورثنا المال عن آبائنا ، فعادا كما كانا ، وأصبحا فقيرين .

ثم ذهب الملك إلى الأعمى وطلب منه صدقة فرحب به ، وقال لـه: قد كنتُ أعمى فرد الله على بصري ، فخذ ما شئتَ ودع ما شئتَ . فقال لـه الملك: قد رضي الله عنك . [القصة من حديث متفق عليه] . وهكذا يكون الأعمى قد نجح في الامتحان ؛ فشكر ربه وتصدَّق مما رزقـه الله ؛ فزاد الله عليه النعمة وباركها لـه ، بينما بخل الأقرع والأبرص ولم يشكرا ربهما ؛ فسلب الله منهما النعمة .

يحكـى أن رجـلا ابـتلاه الله بالعمـى وقطـع اليدين والرجلين ، فدخل عليه أحد الناس فـوجده يـشكر الله على نعمه ، ويقول: الحمد الله الذي عافاني مما ابتلى به غيري ، وفضَّلني علـى كـثير ممـن خلـق تفـضيلا ، فـتعجب الـرجل مـن قـول هـذا الأعمـى مقطوع اليدين والرجلين ، وسأله: على أي شيء تحمد الله وتشكره؟

فقـال لـــه: يـا هـذا ، أَشْكُرُ الله أن وهبني لسانًا ذاكرًا ، وقلبًا خاشعًا وبدنًا على البلاء صابرًا .

يحكى أن رجلا ذهب إلى أحد العلماء ، وشكا إليه فقره ، فقال العالم: أَيسُرُّكَ أنك أعمى ولـك عـشرة آلاف درهـم؟ فقـال الرجل: لا . فقال العالم: أيسرك أنك أخرس ولك عشره آلاف درهـم؟ فقـال الـرجل: لا . فقال العالم: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال الرجل: لا . فقال العالم: أيسرك أنك مقطوع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفًا؟ فقال الرجل: لا . فقال العالم ، أما تستحي أن تشكو مولاك ولـه عندك نعم بخمسين ألفًا .

فعـرف الرجل مدى نعمة الله عليه ، وظل يشكر ربه ويرضى بحاله ولا يشتكي إلى أحد أبدًا .

شكر الأنبياء:

كـان الـشكر خلقًا لازمًا لأنبياء الله - صلوات الله عليهم - ، يقول الله - تعالى - عن إبراهيم - عليه السلام -: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *

شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١] .

ووصف الله - عز وجل - نوحًا - عليه السلام - بأنه شاكر ، فقال: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾[٢] . وقال الله تعالى عن سليمان - عليه السلام - : ﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[٣] .

وكان رسول الله ﷺ كثير الشكر لربه ، وقد علَّمنا أن نقول بعد كل صلاة: «**اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[٤] .

وتحكي عائشة - رضي الله عنها - أن الرسول ﷺ كان يقوم الليل ، ويصلي لله رب العالمين حتى تتشقق قدماه من طول الصلاة والقيام ؛ فتقول له: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فيرد عليها النبي ﷺ قائلا: «**أفلا أكون عبدًا شَكُورًا**»[٥] .

أنواع الشكر:

المسلم يشكر كل من قدم إليه خيرًا ، أو صنع إليه معروفًا ، ومن أنواع الشكر:

شكر الله: المسلم يشكر ربه على نعمه الكثيرة التي أنعم بها عليه ، ولا يكفر بنعم الله إلا جاحد ، قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾[٦] .

ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[٧] .

---

(١) النحل: ١٢٠ ، ١٢١ .
(٢) الإسراء: ٣ .
(٣) النمل: ٤٠ .
(٤) أبو داود والنسائي .
(٥) متفق عليه .
(٦) البقرة: ١٥٢ .
(٧) البقرة: ١٧٢ .

ونعم الله على الإنسان لا تعد ولا تُحْصَى، يقول تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٣].

ويقول تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٤].

ويتحقق شكر الله بالاعتراف بالنعم، والتحدث بها، واستخدامها في طاعة الله، وقال رسول الله ﷺ: «**التحدُّث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله**»[٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأَكْلَة فيحمده عليها، أو يشرب الشَّربة فيحمده عليها**»[٦].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[٧].

وقال عمر بن عبد العزيز عن الشكر: تذكروا النعم؛ فإنَّ ذكرها شكرٌ..

والرضا بقضاء الله شكر، يقول النبي ﷺ: «**إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟! فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟! فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة،**

---

(١) إبراهيم: ٣٤.
(٢) الملك: ٢٣.
(٣) الأنفال: ٢٦.
(٤) القصص: ٧٣.
(٥) البيهقي.
(٦) رواه مسلم والترمذي وأحمد.
(٧) أبوداود والترمذي.

وسمُّوه بيت الحمد»[١].

وعلمنا النبي ﷺ أن نسجد لله سجدة شكر إذا ما حدث لنا شيء يسُرُّ، أو إذا عافانا الله من البلاء.

شكر الوالدين: أمر الله - عز وجل - بشكر الوالدين والإحسان إليهما، يقول تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[٢]، فالمسلم يقدم شكره لوالديه بطاعتهما، وبرهما، والإحسان إليهما، والحرص على مرضاتهما، وعدم إغضابهما.

شكر الناس: المسلم يقدِّر المعروف، ويعرف للناس حقوقهم، فيشكرهم على ما قدموا له من خير. قال رسول الله ﷺ: «**لا يشْكُرُ اللهَ من لا يشْكُرُ الناسَ**»[٣]، وقال رسول الله ﷺ: «**إن أشكر الناس لله - عز وجل - أشكرهم للناس**»[٤].

وأحق الناس بأن تقدم له الشكر مُعَلِّمُك؛ لما له عليك من فضل، قال الشاعر:

قُم للمُعَلِّم وفِّه التبجيلا ::: كاد العلم أن يكون رسولا

وحثنا النبي ﷺ أن نقدم كلمة الشكر لمن صنع إلينا معروفًا؛ فنقول له: جزاك الله خيرًا. قال رسول الله ﷺ: «**من صُنِع إليه معروف، فقال لفاعله: جزاك الله خيرًا، فقد أَبْلَغَ في الثناء**»[٥].

فضل الشكر:

إذا تحلى المسلم بخلق الشكر والحمد لربه، فإنه يضمن بذلك المزيد من نعم الله في الدنيا، ويفوز برضوانه وجناته، ويأمن عذابه في الآخرة، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٦]، وقال سبحانه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ

---

(١) الترمذي وأحمد.
(٢) سورة لقمان: ١٤.
(٣) أبو داود والترمذي.
(٤) رواه أحمد.
(٥) رواه الترمذي والنسائي.
(٦) إبراهيم: ٧.

شَاكِراً عَلِيماً﴾[١]، وقال الحسن: كلما شكرتَ نعمة، تَجَدَّدَ لك بالشكر أعظم منها.

عدم الشكر وآثاره: المسلم ليس من الذين لا يقَدِّرُون المعروف، ولا يشكرون الله - سبحانه - على نعمه، ولا يشكرون الناس، فإن هؤلاء هم الجاحدون الذين ينكرون المعروف، وقد ذمهم القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[٢].

وقال الإمام علي - رضي الله عنه -: كفر النعمة لؤم. وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٣]، فقد جعل الله الجنة جزاءً للشاكرين الحامدين، وجعل النار عقابًا للجاحدين المنكرين.

* * * * *

(١) النساء: ١٤٧.
(٢) النمل: ٤٠.
(٣) إبراهيم: ٧.

obeikandl.com

المبحث الثامن:

الصبـر

الإيمـان نـصفان: صـبر وشكر ، ولما كان كذلك كان حريا بالمؤمن أن يعرفهما ويتمسك بهمـا ، وأن لا يعـدل عنهما ، وأن يجعل سيره إلى ربه بينهما ومن هنا كان حديثنا عن الصبر في القـرآن الكـريم فقد جعله الله جوادا لا يكبو وصارما لا ينبو وجندا لا يهزم ، وحصنا لا يهـدم . فالنصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، والعسر مع اليسر ، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد ومحله من الظفر كمحل الرأس من الجسد .

تعريفه:

الـصبر لغـة: الحـبس والكـف ، قـال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾[1] ، أي احبس نفسك معهم .

واصطلاحاً: حبس النفس على فعل شيء أو تركه ابتغاء وجه الله قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾[2] .

أنواع الصبر الثلاثة والباعث عليه:

أما أنواعه فهي: صـبر علـى طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على أقدار الله المؤلمة . ففي قولنا (على فعل شيء) دخل فيه الأول ، وفي قولنا (أو تركه) دخل فيه النوعان الثانـي والـثالث: أمـا دخـول الثانـي فظاهـر لأنه حبس للنفس على ترك معصية الله ، وأما دخول الثالث فلأنه حبس للنفس عن الجزع والتسخط عند ورود الأقدار المؤلمة .

أما الباعث عليه: فهو في قولنا: (ابتغاء وجه الله) قال تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ فالصبر الذي لا يكون باعثه وجه الله لا أجر فيه وليس بمحمود ، وقد أثنى الله في كتابه على أولي

---

(١) الكهف: ٢٨ .

(٢) الرعد: ٢٢ .

الألباب الذين من أوصافهم ماذكره بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلانِيَةً ﴾ .

وهذا النص يشير إلى حقيقة هامة جداً وهي أن صبغة الأخلاق ربانية فيه ليست أخلاقاً وضعية أو مادية وإنما ربانية سواء من جهة مصدر الإلزام بها أو من جهة الباعث على فعلها ، فالعبد لا يفعلها تحت رقابة بشرية حين تغيب ينفلت منها ، بل يفعلها كل حين وعلى كل حال لأن الرقابة ربانية ، والباعث إرادة وجه الله تعالى .

أهميته :

الصبر: أبرز الأخلاق الوارد ذكرها في القرآن حتى لقد زادت مواضع ذكره فيه عن مائة موضع ، وما ذلك إلا لدوران كل الأخلاق عليه ، وصدورها منه ، فكلما قلبت خلقاً أو فضيلة وجدت أساسها وركيزتها الصبر ، فالعفة: صبر عن شهوة الفرج والعين المحرمة ، وشرف النفس: صبر عن شهوة البطن ، وكتمان السر: صبر عن إظهار مالا يحسن إظهاره من الكلام ، والزهد: صبر عن فضول العيش ، والقناعة: صبر على القدر الكافي من الدنيا ، والحلم: صبر عن إجابة داعي الغضب ، والوقار: صبر عن إجابة داعي العجلة والطيش ، والشجاعة: صبر عن داعي الفرار والهرب ، والعفو: صبر عن إجابة داعي الانتقام ، والجود: صبر عن إجابة داعي البخل ، والكيس: صبر عن إجابة داعي العجز والكسل وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر ، لكن اختلفت الأسماء واتحد المعنى ، والذكي من ينظر إلى المعاني والحقائق أولاً ثم يجيل بصره إلى الأسامي فإن المعاني هي الأصول والألفاظ توابع ، ومن طلب الأصول من التوابع زل . ومن هنا ندرك كيف علق القرآن الفلاح على الصبر وحده ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً ﴾ .

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ .

وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر إلى ماله من قيمة كبيرة في الحياتين الدنيا والأخرى ، فليس هو من الفضائل الثانوية ، بل من الضرورات اللازمة التي لا انفكاك للإنسان عنها ،

فلا نجاح في الدنيا ولا نصر ولا تمكين إلا بالصبر، ولا فلاح في الآخرة ولا فوز ولا نجاة إلا بالصبر، فلولا صبر الزارع والدارس والمقاتل وغيرهم ماظفروا بمقاصدهم:

وقــلّ مــن جــدّ في أمــر يحاولــه ::: واستــصحب الــصبر إلا فــاز بالظفر

وقال آخر:

لا تيأســـن وإن طالـــت مطالـــبة ::: إذا اســـتعنت بـــصبر أو تـــرى فـــرجا
أخلــق بــذي الــصبر أن يحظى بحاجته ::: ومــدمن القــرع للأبــواب أن يلجــا

ولئن كان الأمر كذلك في الدنيا، فهو في الآخرة أشد وأوكد، يقول أبو طالب المكي: "اعلم أن الصبر سبب دخول الجنة، وسبب النجاة من النار لأنه جاء في الخبر "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات"، فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة، وإلى صبر عن الشهوات لينجو من النار". وقال: "اعلم أن كثرة معاصي العباد في شيئين: قلة الصبر عما يحبون، وقلة الصبر على مايكرهون".

وإذا كان هذا شأن الصبر مع كل الناس، فأهل الإيمان أشد الناس حاجة إليه لأنهم يتعرضون للبلاء والأذى والفتن ﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾[1].

وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّه أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[2].

وكان التأكيد أشد في قوله: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[3]، لقد بينت الآية أن قوى الكفر على ما بينها من اختلاف متحدة ضد

---

(١) العنكبوت: ٣.
(٢) البقرة: ٢١٤.
(٣) آل عمران: ١٨٦.

الإسلام، وقرنت لبيان موقف المؤمنين بين الصبر والتقوى فلا يكتفوا بالصبر وحده حتى يضيفوا إليه تقواهم لله بتعففهم عن مقابلة الخصم بمثل أسلحته الدنيئة فلا يواجه الدس بالدس لأن المؤمنين تحكمهم قيمهم الأخلاقية في السلم والحرب والرخاء والشدة. ثم وصفت الآية الأذى المسموع بأنه كثير، فلا بد أن يوطن المسلمون أنفسهم على سماع الافتراء والزور والتلفيق والبهتان من عدوهم حتى يأتي نصر الله.

ورسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أشد أهل الإيمان حاجة إلى الصبر لأنهم الذين يقومون أساساً بالدعوة ويجابهون الأمم بالتغيير وهم حين يقومون بذلك يكون الواحد منهم فرداً في مواجهة أمة تعانده وتكذبه وتعاديه، قال رسول الله ﷺ: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**»، وكلما كان القوم أشد عناداً وأكثر إغراقاً في الضلال كانت حاجة نبيهم إلى الصبر أكثر كأولي العزم مثلاً، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

لقد كانت أوامر الرب سبحانه لمحمد عليه الصلاة والسلام بالصبر كثيرة في القرآن وما ذاك إلا لأنها دعوة شاملة تواجه أمم الأرض كلها فخصومها كثيرون وحاجة إمام الدعوة إلى الصبر أعظم لقد واجه النبي ﷺ صنوف الأذى البدني والنفسي والمالي والاجتماعي والدعائي وغيره، وقاوم ذلك كله بالصبر الذي أمره به الله ﷻ في القرآن كلها إبان العهد المكي لأنه عهد البلاء والفتنة والضعف وتسلط الكافر، وكان مما قاله الله له: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2].

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾[3] فأمر بالصبر لحكمه وهو سبحانه لا يحكم إلا بالحق والعدل، وقال له ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فصيغة الجمع

---

(١) هود: ٤٩.
(٢) النحل: ١٢٧.
(٣) الطور: ٤٨.

لـزيادة التثبيت والتأنيس، وقال الله لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[١] ومن كان بعين الله ومـرأى مـنه فلن يضيع ولن يغلب، ثم أمر بالتسبيح كما أمره به في جملة آيات على أعقاب أمره بالصبر، ولعل السر فيه أن التسبيح يعطى الإنسان شحنة روحية تحلو بها مرارة الصبر، ويحمل التسبيح بحمد الله معنيين جليلين لابد أن يرعاهما من ابتلي:

١- تنزيه الله تعالى أن يفعل عبثاً، بل كل فعله موافق للحكمة التامة، فبلاؤه لحكمة.

٢- أن له تعالى في كل محنة منحة وفي كل بلية نعماء ينبغي أن تذكر فتشكر وتحمد وهذا هو سر اقتران التسبيح بالحمد هنا. وفي قوله (ربك) إيذان بكمال التربية ومزيد العناية.

حكمه:

الصبر من حيث الجملة واجب، ويدل لذلك:

أ - أمر الله به في غير ما آية قال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾[٢].

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾[٣].

ب - نهـيه عـن ضـده كمـا في قـوله ﴿فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾[٤] وقوله ﴿وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[٥] ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾[٦] ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[٧].

ج - أن الله رتـب علـيه خـيري الدنيا والآخرة وما كان كذلك كان تحصيله واجباً، أما مـن حـيث التفـصيل فحكمـه بحـسب المـصبور عـنه أو علـيه، فهو واجب على الواجبات وواجب عن المحرمات، وهو مستحب عن المكروهات، ومكروه عن المستحبات، ومستحب

---

(١) طه: ٣٩.
(٢) البقرة: ١٥٣.
(٣) آل عمران: ٢٠٠.
(٤) الأنفال: ١٥.
(٥) محمد: ٣٣.
(٦) آل عمران: ١٣٩.
(٧) الأحقاف: ٣٥.

obeikandl.com

على المستحبات، ومكروه على المكروهات، ومما يدل على أن الصبر قد لا يكون لازماً قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾[1]، فالصبر عن مقابلة السيئة بمثلها ليس واجباً بل مندوباً إليه.

وقد أمر الله المؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2]، وصيغة المصابرة تفيد المفاعلة من الجانبين، والمعنى هنا: مغالبة الأعداء في الصبر، فإذا كنا نصبر على حقنا، فإن المشركين يصبرون على باطلهم؛ فلا بد أن نغلبهم بمصابرتنا، ثم أمرنا بالمرابطة على تلك المصابرة والثبات عليها لنحقق موعود الله ونظفر بالفلاح، فانتقلت الآية بالأمر من الأدنى إلى الأعلى فالصبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوك والمرابطة: الثبات وإعداد العدة، وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب لئلا يهجم منه الشيطان فيملكه أو يخربه أو يناله بأذى. وعليه فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله بالتقوى.

درجاته:

الصبر نوعان، بدني ونفسي وكل منهما قسمان: اختياري واضطراري، فصارت أربعة:

أ - بدني اختياري، كتعاطي الأعمال الشاقة.

ب - بدني اضطراري كالصبر على ألم الضرب.

ج - نفسي اختياري كصبر النفس عن فعل مالا يحسن فعله شرعاً ولا عقلاً.

د - نفسي اضطراري كصبر النفس عن فقدان محبوبها الذي حيل بينها وبينه.

والبهائم تشارك الإنسان في النوعين الاضطراريين لكنه يتميز عليها بالنوعين الاختياريين، والصبر الاختياري أكمل من الاضطراري، فإن الاضطراري يشترك فيه الناس

(١) النحل: ١٢٦.
(٢) آل عمران: ٢٠٠.

ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري ، ولذلك كان صبر يوسف على مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله من السجن أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لما ألقوه في الجب وفرقوا بينه وبين أبويه ، وباعوه بيع العبد ، ومن الصبر الاختياري صبره على العز والتمكين الذي أورثه الله إياه فجعله مسخراً لطاعة الله ولم ينقله ذلك إلى الكبر والبطر ، وكذلك كان صبر نوح والخليل وموسى الكليم والمسيح ومحمد ﷺ فإن صبرهم كان على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله ولهذا سموا أولي العزم ، وأمر الله رسوله أن يصبر كصبرهم ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ ونهاه عن أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر فخرج مغاضباً قبل أن يؤذن له ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ ﴾[1] ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على أولي العزم حتى ردوها إلى خيرهم وأفضلهم وأصبرهم .

واعلم أن الصبر المتعلق بالتكليف وهو صبر إما على الطاعة أو عن المعصية أفضل من الصبر على مر القدر فإن هذا الأخير يأتي به البر والفاجر والمؤمن والكافر فلابد لكل أحد من الصبر على القدر اختياراً أو اضطراراً ، أما الصبر على الأوامر وعن النواهي فهو صبر أتباع الرسل ، والصبر على الأوامر أفضل من الصبر عن النواهي لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحظور والصبر على أحب الأمرين أفضل وأعلى .

٢ – فضائل الصبر :

حديث القرآن عن فضائل الصبر كثير جداً ، وهذه العجالة لا تستوعب كل ما ورد في ذلك لكن نجتزىء منه بما يلي:

١- علق الله الفلاح به في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

٢- الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره: ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ

---

(١) القلم: ٤٨ .

بِمَا صَبَرُوا ﴾[١] وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٢].

٣- تعليق الإمامة في الدين به وباليقين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[٣].

٤- ظفرهم بمعية الله لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[٤].

٥- أنه جمع لهم ثلاثة أمور لم تجمع لغيرهم: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[٥].

٦- أنه جعل الصبر عوناً وعدة، وأمر بالاستعانة به: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾[٦].

٧- أنه علق النصر بالصبر والتقوى فقال: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[٧].

٨- أنه تعالى جعل الصبر والتقوى جنة عظيمة من كيد العدو ومكره فما استجن العبد بأعظم منهما: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾[٨].

٩- أن الملائكة تسلم في الجنة على المؤمنين بصبرهم ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[٩].

١٠- أنه سبحانه رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال: ﴿إِلاَّ

---

(١) القصص: ٥٤.
(٢) الزمر: ١٠.
(٣) السجدة: ٢٤.
(٤) الأنفال: ٤٦.
(٥) البقرة: ١٧٥.
(٦) البقرة: ٤٥.
(٧) آل عمران: ١٢٥.
(٨) آل عمران: ١٢٥.
(٩) الرعد: ٢٤.

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[١] .

١١- أنه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور: أي مما يعزم من الأمور التي إنما يعزم على أجلها وأشرفها: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[٢] .

١٢- أنه سبحانه جعل محبته للصابرين: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ .

١٣- أنه تعالى قال عن خصال الخير: إنه لا يلقاها إلا الصابرون: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[٣] .

١٤- أنه سبحانه أخبر أنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[٤] .

١٥- أنه سبحانه أثنى على عبده أيوب أجل الثناء وأجمله لصبره فقال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[٥] ، فمن لم يصبر فبئس العبد هو .

١٦- أنه حكم بالخسران التام على كل من لم يؤمن ويعمل الصالحات ولم يكن من أهل الحق والصبر: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[٦] .

قال الإمام الشافعي:"لو فكر الناس كلهم في هذه الآية لوسعتهم ، وذلك أن العبد كماله في تكميل قوتيه: قوة العلم ، وقوة العمل ، وهما: الإيمان والعمل الصالح وكما هو محتاج لتكميل نفسه فهو محتاج لتكميل غيره ، وهو التواصي بالحق ، وقاعدة ذلك وساقه إنما يقوم بالصبر" .

١٧- أنه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بهما غيرهم فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

---

(١) هود: ١١ .
(٢) الشورى: ٤٣ .
(٣) فصلت: ٣٥ .
(٤) لقمان: ٣١ .
(٥) ص: ٤٤ .
(٦) سورة العصر .

وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾[١] .

١٨- أنه تبارك وتعالى قرن الصبر بمقامات الإيمان وأركان الإسلام وقيم الإسلام ومثله العليا، فقرنه بالصلاة ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾[٢] وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[٣]، وجعله قرين التقوى ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾[٤]، وقرين الشكر ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[٥]، وقرين الحق ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[٦]، وقرين المرحمة ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾[٧]، وقرين اليقين ﴿ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[٨]، وقرين التوكل ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾[٩]، ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾، وقرين التسبيح والاستغفار ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾[١٠]، وقرنه بالجهاد ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾[١١] .

١٩- إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[١٢] .

---

(١) البلد: ١٧ .
(٢) البقرة: ٤٥ .
(٣) هود: ١١ .
(٤) يوسف: ٩٠ .
(٥) سبأ: ١٩ .
(٦) العصر .
(٧) البلد: ١٧ .
(٨) السجدة: ٢٤ .
(٩) العنكبوت: ٥٨ .
(١٠) غافر: ٥٨ .
(١١) محمد: ٣١ .
(١٢) النحل: ٩٦ .

obeikandl.com

مجالات الصبر:

أ -- الصبر على بلاء الدنيا:

لقد أخبرنا الله تعالى بطبيعة الحياة الدنيا، وأنها خلقت ممزوجة بالبلاء والفتن فقال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾[1] أي مشقة وعناء، وأقسم على ذلك بقوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[2] وإذا أطلق الصبر فلا يكاد ينصرف إلى غيره عند كثير من الناس.

ب – الصبر على مشتهيات النفس:

وهو ما يسمى بالسراء فإن الصبر عليها أشد من الصبر على الضراء، قال بعضهم: البلاء يصبر عليه المؤمن والعافية لا يصبر عليها إلا صِدِّيق، وقال عبد الرحمن بن عوف: "ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر". إن المؤمن مطالب بأن لا يطلق لنفسه العنان في الجري وراء شهواتها لئلا يخرجه ذلك إلى البطر والطغيان وإهمال حق الله تعالى فيما آتاه وبسط له، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾[3]، ويمكن أن نجمل حاجة الإنسان إلى الصبر في هذا النوع بأربعة أمور:

١- أن لا يركن إليها، ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله.

٢- أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب إلى أضدادها، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده، وحرم الأكل والشرب والجماع.

---

(١) البلد: ٤.
(٢) البقرة: ١٥٥.
(٣) المنافقون: ٩.

٣- أن يصبر على أداء حق الله تعالى فيها، ولا يضيعه فيسلبها.

٤- أن يصبر عن صرفها في الحرام، فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منها، فإنها توقعه في الحرام، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون وإنما كان الصبر على السراء شديداً لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره.

ومما يدخل في هذا النوع من الصبر، الصبر عن التطلع إلى مابيد الآخرين من الدنيا، والصبر عن الاغترار بما ينعمون به من مال وبنين قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾[١].

وقد نهى الله ورسوله ﷺ عن ذلك بقوله: ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾[٢]، فالمؤمن من يعتز بنعمة الهداية ويعلم أنما هم فيه من الدنيا ظل زائل وعارية مستردة ولا يبالي بمظاهر الفخامة التي يتبجح بها الطغاة، لقد قال الذين يريدون الحياة الدنيا لما رأوا قارون في زينته ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[٣]، أما أهل العلم والإيمان فقالوا: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾[٤].

الصبر على طاعة الله تعالى:

إن الصبر على طاعة الله أعظم مجالات الصبر وهو لذلك أشدها على النفوس وقد جاءت صيغة الأمر بالصبر على الطاعة مغايرة لغيرها فقال تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾[٥]، وقال: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[٦]، فاستخدم صيغة الافتعال وهو يدل على المبالغة في الفعل إذ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وما ذاك إلا

---

(١) المؤمنون: ٥٥.
(٢) طه: ١٣١.
(٣) القصص: ٧٩.
(٤) القصص: ٨٠.
(٥) مريم: ٦٥.
(٦) طه: ١٣٢.

لمشقة مجاهدة النفوس على القيام بحق العبودية في كل الأحوال .

الأسباب المعينة على الصبر:

أ – المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا:

إن من عرف طبيعة الدنيا وما جبلت عليه من الكدر والمشقة والعناء هان عليه ما يبتلى به فيها لأنه وقع في أمر يتوقعه ، والشيء من معدنه لا يستغرب ، وقد عرفنا الله بهذه الحقيقة فقال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ ، أي في مشقة وعناء ، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ﴾ ، وبين جل جلاله أنها لا تدوم على حال بل يوم لك ويوم عليك ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .

إن من لا يعرف هذه الحقيقة سيفاجأ بوقائع الأحداث تصب على رأسه صباً فيظن أنه الوحيد من بين بني الإنسان الذي يصاب بذلك لشؤمه وسوء حظه ، ولذلك يبادر بعضهم بالإجهاز على نفسه بالانتحار ، لأنه ما علم أن لكل فرحة ترحة وما كان ضحك إلا كان بعده بكاء ، وما ملئ بيت حبرة إلا ملىء عبرة ، وما عبت دار من السرور إلا عبت من الحزن ، "وأنه لو فتش العالم لم ير فيه إلا مبتلى: إما بفوات محبوب أو حصول مكروه ، وأن سرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل ، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً ، وإن سرت يوماً أساءت دهراً ، وإن متعت قليلاً ، منعت طويلاً . . ." .

ب – معرفتك بأنك وما بيدك ملك لله تعالى ومرجعك إليه:

قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[1] ، وقد علمنا في كتاب ربنا أن نقول عند حلول المصائب: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ .

يقول ابن القيم: "وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب ، وأنفعه له في عاجلته وآجلته ، فإنها تتضمن أصلين عظيمين ، إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته:

---

(١) النحل: ٥٣ .

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل، وقد جعل عند العبد عارية. وأيضاً، فإنه محفوف بعدمين، عدم قبله، وعدم بعده حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يبقى عليه وجوده، فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره. ويجيء ربه فرداً كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بدايته ونهايته، فكيف يفرح بموجود ويأسى على مفقود؟ ففكره في مبدئه ومعاده أعظم علاج هذا الداء ولذلك يقال عند تعزية المصاب (إن لله ماأخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى). وقد أدركت أم سليم هذا المعنى عندما توفي ابنها، فلما جاء أبوه (أبو طلحة) يسأل عنه قالت: قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح (تعني الموت، وقد ظن أنها تريد النوم لمجيء العافية) وكانت قد هيأت نفسها لزوجها فتعرضت له فأصاب منها فلما أراد الخروج لصلاة الفجر، قالت له: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوماً أعاروا أهل بيت عارية، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، إن العارية مؤداة إلى أهلها، فقالت: إن الله أعارنا فلاناً ثم أخذه منه فاسترجع . . . إلى آخر القصة.

ج - اليقين بحسن الجزاء عند الله تعالى:

أن مما يرغب الإنسان في العمل، ويزيده ثباتاً فيه علمه بحسن جزائه في الآخرة ولا نجد في القرآن شيئاً ضخم جزاؤه وعظم أجره مثل الصبر فيقول نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ويقول سبيناً أن الصابرين يجزون بأحسن ماعملوا: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]، ويصرح بأن أجرهم غير معدود ولا محدود فيقول: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، وقد ذكّر المؤمنون بهذه الحقيقة في الكلمة التي أمروا أن يقولوها عند حلول المصائب: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾، فيتذكرون أنهم سيرجعون إلى الله فيجزيهم على عملهم وصبرهم أحسن الجزاء وأوفاه.

---

(١) النحل: ٩٦.

يقول أبو طالب المكي: "وأصل قلة الصبر: ضعف اليقين بحسن جزاء من صبرت له، لأنه لو قوي يقينه، كان الآجل من الوعد عاجلاً إذا كان الواعد صادقاً، فيحسن صبره لقوة الثقة بالعطاء . . .".

د – الثقة بحصول الفرج:

إن يقين العبد بأن النصر مقرون بالصبر وأن الفرج آت بعد الكرب وأن مع العسر يسراً يقويه على الصبر على ما يلاقيه، وقد كثرت الآيات الدالة على هذا المعنى لما له من أثر في مزيد التحمل والثبات، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[1]، قال بعضهم: "لن يغلب عسر يسرين" يقصد بذلك أن العسر ورد معرفة في الموضعين والمعرفة إذا كررت في الجملة لا تفيد التعدد بخلاف النكرة وهي التي ورد به اليسر في الموضعين، فإذا قلت: جاء الرجل وأكرمت الرجل، كان الرجل في المواطنين واحداً، وإذا قلت: جاء رجلٌ وأكرمت رجلاً، كان المقصود رجلين. وقد جعل العسر في الآيتين مع العسر لا بعده أو عقبه لينبه إلى قرب تحققه بعده حتى كأنه معه ولينبه أيضاً إلى أن كل عسر مقرون بيسر وأكثر فما من مصيبة يبتلى بها عبد إلا ولله فيه إلطاف بأن لم يجعلها على نحو أعظم أو أكبر أو أطول مما هي عليه.

وقد تكرر في القرآن الأمر بالصبر مقروناً بالتذكير بأن وعد الله حق لا يتخلف أبداً قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾[2]، وقال: ﴿فاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾[3].

إن اشتداد الأزمة في سنن الله تعني قرب انبلاج الفجر وظهور طلائع النصر كما قيل:

اشتدي أزمةُ تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج.

وهذا نجد يعقوب يكون أمله في العثور على يوسف أشد عندما أخذ ابنه الثاني

---

(١) سورة العصر.
(٢) الزمر: ٢٠.
(٣) الروم: ٦٠.

فيقول: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾[١]

وقال لأبنائه: ﴿ يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾[٢]

هـ - الاستعانة بالله:

مما يعين المبتلى على الصبر أن يستعين بالله تعالى ويلجأ إلى حماه فيشعر بمعيته سبحانه وأنه في حمايته ورعايته، ومن كان في حمى ربه فلن يضام ولذا قال موسى لقومه بعد أن هددهم فرعون بما هددهم به ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٣].

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجني عليه اجتهاده.

ولعل حاجة الصابرين إلى الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه هي بعض أسرار اقتران الصبر بالتوكل على الله في آيات كثيرة كقوله: ﴿ نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٤]، وقوله عن رسله: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ ﴾[٥].

و - الاقتداء بأهل الصبر:

إن التأمل في سير الصابرين يعطي الإنسان شحنة دافعة على الصبر، ومن هنا ندرك سر حرص القرآن المكي على ذكر صبر الأنبياء على ما لاقوه من أممهم وهذا ما صرح الله به في قوله: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٦].

---

(١) يوسف: ٨٣.
(٢) يوسف: ٨٧.
(٣) الأعراف: ١٢٨.
(٤) النحل: ٤٢.
(٥) إبراهيم: ١٢.
(٦) هود: ١٢٠.

وقال الله: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[١]، وجاء الأمر صريحاً لرسول الله ﷺ بالاقتداء بالصابرين قبله: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[٢]، وحين نزل البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ جاءهم التذكير ببلاء من كان قبلهم:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾[٣].

وقال لهم: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[٤].

ز – الإيمان بقدر الله:

إن إيمان العبد بقدر الله النافذ واستسلامه له أكبر عون على تجشم مصاعب المصائب، وعلم العبد بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه برد من اليقين يصب على فؤاده، قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[٥].

وركون المؤمن إلى قدر الله في مثل هذا المقام واحتجاجه به أمر لا غبار عليه لأنه إحالة على القدر فيما لا اختيار للعبد فيه.

واعلم أن الجزع والهلع والتبرم والضيق لايرد من قدر الله شيئاً فلابد من الصبر أول

---

(١) الأنعام: ٣٤.
(٢) الأحقاف: ٣٥.
(٣) العنكبوت: ٢.
(٤) البقرة: ٢١٤.
(٥) الحديد: ٢٢.

الأمر لئلا يحرم العبد من المثوبة ولئن لم يصبر أول الصدمة فسيصبر بعد ذاك رغم أنفه ولا أجر له، قال حكيم: "العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد السبعة أيام".

إن المبالغة في التشكي والتبرم لا يغير من الواقع شيئاً بل يزيد النفس هماً وكمداً ولهذا قال الله لرسوله: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[1]، فأزال الوحشة عن قلب الرسول ﷺ في أول آية بأن تكذيبهم ليس للرسول وإنما هو لله تعالى، ثم عزاه في الثانية وسلاه بما حدث لرسل الله فصبروا، ثم قال له: إن شق عليك إعراضهم وذهبت نفسك عليهم حسرات وضاق صدرك فليس لك إلا الصبر، وإلا فافعل ما بدا لك فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض تهرب منه أو سلماً في السماء، تصعد عليه فدونك فافعل.

الآفات المعيقة عن الصبر:

١ - **الاستعجال**: النفس موكولة بحب العاجل: ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[2]، فإذا أبطأ على الإنسان ما يريد نفد صبره وضاق صدره واستعجل قطف الثمرة قبل أوانها فلا هو ظفر بثمرة طيبة ولا هو أتم المسير، ولهذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[3]، أي العذاب فإن له يوماً موعوداً.

لقد باءت بعض الدعوات بالفشل ولم تؤت ثمرتها المرجوة بعلة الاستعجال، ولو أنهم صبروا لكان خيراً لهم، ثار بعضهم على الطغيان ولما يقم على ساقه ويشتد عوده وتكتمل آلته وتنضج دعوته وتمتد قاعدته فقضي على الدعوة ووئد الداعية وذهب الاثنان في خبر كان. والحديث عن الاستعجال أطول من هذا ولكن في الإشارة للبيب ما يغني عن العبارة.

---

(١) الأنعام: ٣٣ - ٣٥.
(٢) الأنبياء: ٣٧.
(٣) الأحقاف: ٣٥.

٢ – **الغـــضب**: قد يرى الداعية من المدعوين مالا يليق فيستفزه الغضب فيدفعه إلى مـالا يحسن به مما يسيء إلى الدعوة ويلصق بجبين حاملها وصمة عار تبقى الدهر كله ، ولهذا حذر الله رسوله من مغبة الغضب بأن لا يقع فيما وقع فيه يونس فقال: فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت لقد فرغ صبره فضاق صدره فغادرهم غاضباً قبل أن يأذن الله له ظـناً مـنه أن الله لـن يضيق عليه فضيق الله عليه بأن جعله في بطن الحوت: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَـــبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، فتاب الله عليه: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ .

٣ – **الـــيأس**: أعظـم عوائق الصبر وهو الذي حذر يعقوب أبناءه من الوقوع فيه مع تكـرار الـبحث عـن يوسـف وأخـيه: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

وهـــو الـــذي حـــرص القـــرآن علـــى دفعـــه عـــن أنفـــس المؤمـــنين فـــبذر الأمـــل في صدورهم: ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .

وقـال لهـم: ﴿ فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ ، إن إضـاءة شعلة الأمل دواء اليأس وهذا ما ذكرت به الآيات المؤمنين وهو ما ذكـر بـه موسى قومه فقال: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، ولما شكا خباب إلى رسول الله ﷺ ما يلاقيه من أذى قريش قال لـه رسول الله ﷺ بعد أن ذكره مصاب الصالحين في الأمم قبله: «**والله ليتمن الله هذا الأمر حـــتى يـــسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**» .

٥ – نماذج للصابرين:

لقد ضُرب لنا في القرآن نماذج رائعة تجسدت فيهم حقيقة الصبر ، واستحقوا أن يذكروا بـصبرهم فيقـتدى بهـم الصابرون ، وسنختار في هذه العجالة ثلاثة منها يتمثل في كل واحد

منها لون من الصبر .

أ – الصبر على طاعة الله:

في قصة إبراهيم وإسماعيل التي حكاها الله لنا بقوله عن إبراهيم: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

من أيهما تعجب من الأب الذي رأى في المنام أنه يذبح ابنه أم من الابن الذي يستسلم لأمر الله طواعية واختياراً ، لقد كان الابن وحيد إبراهيم ولم يأته إلا على كبر فما ظنك بتعلق الأب بابنه ، إنه تعلق لا يوصف ، ولكن تعلقه بالله أعظم وطاعته لله فوق كل ذلك ، لقد حطم إبراهيم كل نداءات الأرض لما جاء الأمر من السماء ، وضرب للناس أروع الأمثال في الطاعة ، ولقد كان الوحي في هذه المرة رؤيا فلم يتأولها إبراهيم لصالحه بدافع من غريزة الأبوة ، ولكنه امتثل وعرض على ابنه ما رأى عرضاً في غاية الإيجاز والسهولة ولكنه يتضمن أمراً في غاية الخطورة ، ولم يكن الابن صغيراً بحيث لم ير الأب من جدواه ما يجعله شديد التعلق به والاعتماد عليه ، ولكنه بلغ مع أبيه السعي فأصبح فتى مفتول العضلات ، قوي الساعد ، وكانت إجابة الابن محيرة حقاً ، لقد حسم الموقف بجملتين قالهما لأبيه خلدهما التاريخ له ، وكانتا سبباً في تدوين اسمه في الصابرين: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾[2] ، قال إسماعيل: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أي لا تأخذ رأيي ولا تنتظر مشورتي بل نفذ ما أمرت به ، ثم لا ينسى أن يستمد العون من الله على حاله بالصبر فهو لا يعتمد على قوته وشدة جلده بل يسأله

(١) الصافات: ٩٩ .
(٢) الأنبياء: ٨٥ .

من ربه ، وصدقا وأسلم الوالد ولده ، وتله أبوه للجبين ، وتهيأ للذبح وجاءت البشرى عند ذاك بعد أن حقق الابتلاء ثمرته ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ .

ب – الصبر عن معصية الله:

وأبرز الأمثلة وأشدها وضوحاً صبر يوسف عليه السلام على مراودة امرأة العزيز ، لقد كان الصبر ظهير يوسف في محنته التي ابتلي بها اضطراراً واختياراً وكشف عن هذا حين عثر إخوته عليه فقال: ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] ، لقد رفض كل العروض والإغراءات وخرج من الفتنة بإيمانه وصبره ، وكان صبره هذا أرقى من صبر أبيه يعقوب على الفراق وأرقى من صبر أيوب على ما بلي به لأن صبرهما كان اضطرارياً لا حيلة لهما في رفعه ولا دفعه بينما كان صبر يوسف اختياراً وحين تملك فلم يتكبر ولم يطغ صبراً اختيارياً ، يقول ابن القيم نقلاً عن شيخه ابن تيميه رحمهما الله: "كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه ، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر ، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا ، ومحاربة للنفس ، ولاسيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة:

١ – فإنه كان شاباً ، وداعية الشباب إليها قوية .

٢ – وعزباً ليس معه ما يعوضه ويرد شهوته .

٣ – وغريباً ، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي فيه بين أصحابه ومعارفه وأهله .

٤ – ومملوكاً ، والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر .

٥ – والمرأة جميلة وذات منصب ، وهي سيدته .

---

(١) يوسف: ٩٠ .

٦- وقد غاب الرقيب .

٧- وهي الداعية إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص .

٨- وتوعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار .

ومع هذه الدواعي كلها صبر اختيارياً وإيثاراً لما عند الله ، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه" .

لقد ضحى بدنياه من أجل دينه ، وبحريته من أجل عقيدته ، وقال قولته المشهورة: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[1] .

ولما أفرج عنه من السجن الطويل واستدعي لمقابلة الملك ، لم يستفزه هذا الخبر بل طلب التحقيق في القضية حتى تظهر براءته على الملأ وحدث ذلك فعلاً وعند ذلك ازداد إعجاب الملك به فقال: ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾[2] ، وكان في المرة الأولى قال ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ ، فقط ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

ج - الصبر على أقدار الله المؤلمة:

إن أشهر من يقرن اسمه بهذا اللون من الصبر نبي الله أيوب عليه السلام ، لقد أصابه ضر عظيم في بدنه وأهله وماله فصبر ، فخلد ذكره في القرآن فقال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[3] ، لقد ذكر له من ألوان التكريم وأوسمة الشرف ما هو جدير بمثله لعظيم صبره ، فأولهما:

١- تكريمه بتخليد ذكره ومباهاة الله به عند رسوله محمد ﷺ .

---

(١) يوسف: ٣٣ .
(٢) يوسف: ٥٤ .
(٣) ص: ٤١ .

٢- تكريمه بقوله: ﴿ عَبْدَنَا ﴾ ، حيث أضافه إليه ، والعبودية من أشرف أوصاف الإنسان التي يتحلى بها .

٣- عندما استجاب نداءه وكشف ضره ووهب له أهله ومثلهم معهم .

٤- حينما جعل له مخرجاً من يمين حلفه على امرأته فكرمت وكرم بما يخلصه من مأزق الحنث ، وكانت خاتمة ذلك هذا الوسام من الشرف العريض ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[1] ، فوصفه بالصبر حتى قرن الصبر بأيوب فلا يذكر إلا وهو معه ، ثم قال: نعم العبد فكانت شهادة من الله بتمام عبوديته ، ثم ختم ذلك بقوله إنه أواب ، والأواب: المبالغ في شدة رجوعه إلى الله تعالى .

وقد ذكر الله تعالى صبره في موطن آخر فقال: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾[2] ، لقد كان نداء أيوب في ضرائه غاية في اللطف والأدب ولذا كانت الإجابة آية في التمام والكمال ، لقد نادى ربه ولم يسأله شيئاً بعينه من الأهل والعافية وذكر ربه بما هو أهله وبما اتصف به ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ، فاستجاب له دعاءه فكشف عنه الضر ورد عليه الأهل ومثلهم معهم وجعله ذكرى للعابدين وإماماً من الصابرين .

ماهي الأسباب المعينة على الصبر؟

١- المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا وما جُبلت عليه من المشقة والعناء وأن الله خلق الإنسان في كبد وأنه كادح إلى ربه كدحاً فملاقيه وأن الآلام والتنغيص من طبيعة هذه الدنيا والابتلاءات ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ .

ومن لا يعرف هذه الحقيقة سيتفاجأ بالأحداث ، أما الذي يعرف طبيعة الحياة الدنيا إذا

---

(١) ص: ٤٤ .
(٢) الأنبياء: ٨٣ .

حصل لـه أي ابتلاء ومنغصات فإن الأمر عنده يهون .

٢- الإيمان بأن الدنيا كلها ملك لله تعالى ، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[١] ، ولذلك الإنسان إذا حرم من شيء وابتلي يقول: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، لا يوجد كلمة أبلغ في علاج المصاب وأنفع لـه عند المصيبة من تذكير العبد نفسه بهذين الأصلين . والدنيا فانية ، والعبد وأهله وماله ملك لله ، والمال وأولاده جعلوا عنده عاريّة ، وصاحب العارية متى ما شاء استردها ، ومصير الناس العودة إلى الله سبحانه وتعالى . وأم سليم لما فقهت هذا كان لها مع أبي طلحة ذلك الموقف المشهور فلما مات ولده الذي يحبه فقالت: (يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا أهل بيت عارية فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟) قال: لا . . إن العارية مؤداة ، قالت: (إن الله أعارنا فلاناً - ولدنا - ثم أخذه منا) فاسترجع . .

٣- معرفة الجزاء والثواب على هذا الصبر . . وقد تقدم ذكر شيء من هذا . . ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٢] ، يوفون أجرهم بغير حساب . .

٤- الثقة بحصول الفرج ، والله جعل مع كل عسر يسرين رحمة منه عزوجل ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[٣] ، العسر معرفة بأل ، ويسر نكرة ، فالعسر هو نفسه ويسر يسر ثان ، ولن يغلب عسرٌ يسرين . والله تعالى جعل اليسر مع العسر وليس بعده ، ولذلك فالله ينزل المعونة على قدر البلاء ، والله لا يخلف الميعاد ، ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[٤] ، والفجر ينبلج ولو بعد ليل طويل . .

يعقوب صبر على فقد يوسف والولد الثاني ، وقال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾[٥] لا تسخّط فيه ولا جزع ، وقال: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ ، فبعض الناس يصبرون صبراً

---

(١) النحل: ٤٢ .
(٢) سورة العصر .
(٣) الروم: ٦٠ .
(٤) يوسف: ٨٣ .
(٥) يوسف: ٨٦ .

غير جميل، والصبر الجميل ليس فيه تشكّي للمخلوقين، ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ وليس إليكم.

٥- الاستعانة بالله تعالى واللجوء إلى حماه وطلبة معونته سبحانه، قالها موسى لقومه: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وحاجة الصابرين إلى الاستعانة عظيمة جداً ولذلك كان التوكل جانباً للمعونة من الله ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

٦- الإيمان بالقضاء والقدر من أعظم ما يعين على الصبر، وأن يعلم العبد أن قضاء الله نافذ وأن يستسلم لما قضاه وقدره مما لا حيلة له به، ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا﴾[1]، ثم إن العبد يعلم أن الجزع والهلع والتبرم والاعتراض والتشكّي والتضجر لا يجدي شيئاً ولا يعيد مفقوداً فلا حلّ إلا بالصبر، والعاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد سبعة أيام..!، أي يستسلم.

التأمل في قصص الصابرين من أعظم الأسباب المعينة على الصبر:

فهذا نوحٌ عليه السلام صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً دام ألف سنة إلا خمسين عاماً جاهد ودعوة، وصبر على الإيذاء والسخرية، اتهموه بالجنون والسحر والضلال وهو يقابل ذلك بالصبر حتى قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، وصبر..

إبراهيم تعرض لمحنة عظيمة ويصبر صبر الموحد الموقن بوعد الله، حتى لما ألقي في النار قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، حتى لما أُمِر بذبح ولده صبر وهمّ بذبح الولد، وأخذ السكين وأضطجع الولد استسلاماً لأمر الله، والله ابتلاه بهذا الأمر فصبر.

وموسى واجه التهديد والإيذاء من قومه وقوم فرعون قبلهم، فصبر على دعوة قومين!.

---

(١) الحديد: ٢٢.

والنبي ﷺ قال لما تذكر أخيه موسى: «**يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**».

إبراهيم لما أُمِر بترك ولده وهو حديث عهد ولادة، وقد كان عقيماً، جاءه اسماعيل بعد سنوات طويلة جداً وهو شيخ كبير، وجاءه الأمر من الله اتركه وأمه في وادٍ غير ذي زرع!، مانال الخليل هذه المرتبة من شيء قليل، فمضى ولم يلتفت ولم يتحسر ولم يتردد، حتى قالت هاجر: لمن تتركنا؟ آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فرجع للشام ورزقه الله من سارة بإسحاق ومن ورائه يعقوب.

وعيسى عانى من بني إسرائيل من التهم الباطلة، تآمروا على قتله وصلبه وصبر حتى رفعه الله إليه.

وخاتم الأنبياء ﷺ كم تعرض للأذى والاضطهاد، قالوا عنه مجنون ساحر كذاب خائن، وأشد شيء على الصادق أن يتهم بالكذب، أشد شيء على العاقل أن يقال عنه مجنون، وأشد شيء على الأمين أن يتهم بالخيانة، وأشد شيء على المؤمن أن يقال عنه شاعر ساحر به جنّة، وهو أكمل الخلق وأصدقهم وأعقلهم، ووضعوا الشوك وأخرجوه من بلده، وذهب للطائف يعرض نفسه على القبائل، وأحسّ بالاضطهاد وخرج من مكة لا يدري من الهم لم يستفق إلى في قرن الثعالب، حتى تآمروا على قتله ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[1]، وقتلوا بعض أصحابه وعذبوا بعضهم، وأشد شيء على النبي أن يرى أتباعه يضطهدون ويقتلون أمامه، يمر عليهم فيقول: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»، وهكذا صبر ﷺ حتى أتاه اليقين من ربّه بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة حتى لما ذهب المدينة لا يُظَنّ أن مجالات الصبر قد خفّت لأنه عانى من المنافقين معاناة عظيمة، يكفي حادثة الإفك، وصبر على كيد اليهود، ووضعوا له السم، وكانت نوبات الحمى تنتابه حتى مات في آخر نوبة منها فكان في ذلك أجله وهكذا أصحابه، بلال، سمية، صهيب، عمار، مقداد، ، صهروهم في الشمس وعذبوهم..

---

(١) الأنفال: ٣٠.

المرأة التي قُتِل أبوها وأخوها وزوجها في يوم أحد فصبرت على ما حصل لها من هذه الأقدار ، فماتوا في رفعة الدين ونصرة الدين وجهاد الكفار ، وهكذا سار على هذا المنوال التابعون وتابعو التابعين . .

عروة بن الزبير من أفاضل التابعين وأخيار التابعين ، كان له ولد اسمه محمد من أحسن الناس وجهاً ، دخل على الوليد في ثياب جميلة فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش ، ولا دعا بالبركة فقالوا أنه أصابه بالعين ، خرج هذا محمد بن عروة بن الزبير من المجلس فوقع في اصطبل للدواب فلا زالت الدواب تطأه حتى مات ، ثم مباشرة وقعت الآكلة (الغرغرينا) في رجل عروة وقالوا لابد من نشرها بالمنشار وقطعها حتى لا تسري لأماكن الجسد فيهلك ، فنشروها فلما وصل المنشار إلى القصبة (وسط الساق) وضع رأسه على الوسادة فغشي عليه ثم أفاق والعرق يتحدّر من وجهه وهو يهلل ويكبّر ويذكر الله ، فأخذها وجعل يقلبها في يده وقال: (أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أنني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضي الله) ، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت وأمر بها أن تقدم إلى المقبرة ، لما جاء من السفر بعد أن بترت رجله وفقد ولده قال لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، ولما قالوا: نسقيك شيئاً يزيل عقلك؟ قال: إنما ابتلاني ليرى صبري ، ورفض .

أبوقلابة ممن ابتلي في بدنه ودينه ، وأريدعلى القضاء وهرب إلى الشام فمات بعريضة وقد ذهبت يداه ورجلاه وبصره وهو مع ذلك حامد شاكر .

أحمد بن بنصر الخزاعي من كبار علماء السلف كان قوالاً بالحق آمراً بالمعروف ، نهاءً عن المنكر ، ثبت في محنة خلق القرآن ، حملوه إلى سامراء فجلس مقيداً وعرض عليه الرجوع عن القول بأن القرآن كلام الله المنزل وعرض عليه القول بخلق القرآن فرفض ، وقاموا عليه بحرب نفسية وجسدية . . ، فيقوم القاضي عند خليفة السوء فيقول إنه حلال الدم ، ووافقه من كان حاضراً ، وأحمد بن أبي دؤاد قال شيخ كبير ، يتظاهر بالشفقة عليه ، فقال الخليفة: ما أراه إلا مؤدياً لكفره فأخذ السيف وقال إني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر . .! ، فضرب به عنقه بعد أن مدوا رأسه بحبل ، ونصب رأسه بالجانب الشرقي من بغداد ، يقول أحد أهل العلم جعفر بن محمد الصائغ رأيت أحمد بن نصر الخزاعي حين قُتِل قال رأسه لا إله إلا الله

وهذا من كراماته رحمه الله ، قال الإمام أحمد رحمه الله عنه: جاد بنفسه في سبيل الله .

والإمام أحمد نفسه كيف صبر في محنة خلق القرآن؟ ، حُمِل هو ومحمد بن نوح وهو شاب وليس عالماً لكن صبر مع الإمام أحمد ، فحُمِل إلى المأمون ، يشاء الله أن محمد بن نوح يمرض ويوصي الإمام أحمد: أنت إمام وأنا أموت ولا أحد يأبه لي ، فاصبر . .

ويموت محمد في الطريق ، ويؤخذ الإمام أحمد رحمه الله مقيد ، ودخل عليه بعض الناس قبل الدخول على الخليفة (هناك أحاديث في التقية والمرء عند الشدة يمكن أن يورِّي حتى تمضي العاصفة) ، قال: كيف تصنعون بحديث خبّاب؟ إنه من كان قبلكم يُنشَر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه فيئسوا منه وتركوه ، وقال اللهم لا تريني وجه المأمون ، فمات المأمون قبل أن يصل أحمد ، ووصل الخليفة الذي بعده والمحنة مازالت مستمرة ، فيقول له: يا أحمد إنها والله نفسك ، إنه لا يقتلك بالسيف ولكن يضربك ضرباً بعد ضرب حتى تموت ، قال ناظَر ابن أبي دؤاد ، فأسكت ، هاتوا شيء من القرآن أقول به ، هاتوا شيء من السنة أقول به فلا يأتون بدليل ، يقول الخليفة لأحمد: تعرف صالح الرشيدي؟

قال: سمعت باسمه ، قال: كان مؤدبي ، فسألته عن القرآن فخالفني ، ولما خالفني وأصر على أن القرآن غير مخلوق أُمِرت به فوطيء وسُحِبَ حتى مات ، قال: هاتوا العقابين والسياط ، قال: إئتوني بغيرها ، ثم قال الخليفة للجلادين: تقدموا واضربوه ، وربطوا الإمام أحمد ، وكل فرد منهم يضرب سوطين وبأقوى ما عنده ويقول الخليفة للجلاد: شدّ يداً قطع الله يدك . . ، ليُنال أحمد رحمه الله أعظم العذاب بالضرب على أيديهم ، ثم يقول الخليفة علامَ تقتل نفسك إني عليك لشفيق وجعل ذلك القائم على رأسه الحارس ينخسه بالسيف ، وذاك يقول ويحك يا أحمد ما أجبتني ، أجبني إلى أي شيء يكون لك فيه فرج حتى أطلقك فيقول: يا أمير المؤمنين أعطني شيئاً من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ ، ثم يأتي الجلاد ويضرب وهكذا تستمر عملية الضرب حتى قال ذهب عقلي فأفقت والأقياد في يدي فقال لي رجل كبيناك على وجهك وجعلنا فوقك حصيراً ووطئنا عليك فقال ماشعرت بذلك ، أتوني بأكل فقلت لا أفطر وكان صائماً ، ثم جاؤوا به والدم يسيل في ثوبه فصلى فقال أحدهم: صليت والدم يسيل في ثوبك؟ قال أحمد: صلى عمر وجرحه يثعب دماً ، ثم مكث

في السجن ثم خُلّي عنه بعد ٢٨ شهراً، ثم جُعِل في الإقامة الجبرية، في بيته، وليس هناك أصعب على العالم من أن يتوقف عن نشر العلم، سئل أحدهم عن الإمام أحمد رحمه الله فقال: رجل هانت عليه نفسه في سبيل الله فبذلها كما هانت على بلال نفسه، لولا أحمد لذهب الإسلام.

فيا ضعيف العزم الطريق طويل.. تعب فيه آدم.. وجاهد فيه نوح.. وألقي في النار إبراهيم.. واضطجع للذبح إسماعيل.. وشق بالمنشار زكريا وذبح الحصور يحيى وقاسى الضر أيوب وزاد على المقدار بكاء داود، واتهم بالسحر والجنون نبي الله الكريم وكسرت رباعيته وشج رأسه ووجهه وقُتِل عمر مطعوناً وذو النورين علي والحسين وسعيد بن جبير وعذب ابن المسيب ومالك..، فالشاهد أنه في النهاية لا سبيل إلا الصبر..

ولذلك يقول عمر رضي الله عنه: (أدركنا أفضل عيشنا بالصبر)، يعني ما طابت الحياة إلا بالصبر مع مافيها من المنغصات والشدائد، فهو العمل القلبي الذي تطيب معه الحياة ولا تطيب بدونه، ولذلك ينبغي على العبد أن لا يفعل شيئاً ينافي الصبر، مثل شكوى الخالق للمخلوق والتبرم والتضجر فإما أن يخبر الإنسان الطبيب بعلته ليداويه فلا بأس..

والأنين.. الألم.. ما يحدث من صوت من المريض المتألم..، هناك أنين استراحة وتفريح فلا يكره، وأنين شكوى فيكره ففيه تفصيله..

ومما ينافي الصبر ما يحدث من النائحات وغيرهم وحتى من الرجال الآن من لطم الرأس والخد وضرب الوجه باليدين والكفين والنياحة.. واويلاه.. واثبوراه..

ولذلك فإن المسلم عليه أن يتقي الله سبحانه وتعالى وأن يسلك سبيل الصابرين، نسأل الله عزوجل أن يجعلنا منهم، وأن يرزقنا هذا الخلق الكريم، إنه جواد كريم... أمين.

* * * * *

المبحث التاسع:

التفكر

فإن التفكر من أعمال القلوب العظيمة وهو مفتاح الأنوار ومبدأ الإبصار وشبكة العلوم والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ولكن جهلوا حقيقته وثمرته وقليل منهم الذي يتفكر ويتدبر وقد أمر الله تعالى في التفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾[1] .

وقال عطاء: انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ : «**زر غبّاً؛ تزدد حبّاً**» ، قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ ، فال فبكت ، وقالت: كل أمره كان عجباً ، أتاني في ليلتي ثم قال: ذريني أتعبد لربي عز وجل فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتاه بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . . فقال: لقد أنزلت عليّ الليلة آيات ويلٌ لمن قرأها ولم يتدبر فيها أو كما قال عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها[2] .

وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر .

قال الحسن: " تفكر ساعة خير من قيام ليلة" .

قال الفضيل: " الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك" .

---

(١) آل عمران: ١٩١ .

(٢) الحديث صححه الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة .

قيل لإبراهيم إنك تطيل الفكر فقال: " الفكرة مخ العقل" .

وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل: "إذا المرء كانت له فكرة ؛ ففي كل شيء له عبرة" .

وقال الحسن: "من لم يكن كلامه حكمة فهو لهو ، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو" .

وفي قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾[1] قال: أمنع قلوبهم التفكر في أمري .

وكان عدد من أهل العلم والحكمة يطيلون الجلوس والتفكر .

وقال عبد الله بن المبارك يوماً لسهل بن عدي لما رآه ساكتاً متفكراً: أين بلغت؟ قال: الصراط!

وقال بشر: " لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل" .

وقال ابن عباس: "ركعتان مقتصدتان في تفكر خيرٌ من قيام ليلة بلا قلب" .

وبينما كان أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل له ما يبكيك؟ قال: " تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي" .

وقال أبو سليمان: "عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر" .

وقال: " الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية ، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويُحيي القلوب . ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف" .

وقال ابن عباس: "التفكر في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه . وإذا كان هم العبد وهواه في الله عز وجل جعل الله صمته تفكراً وكلامه حمداً" .

وقال الحسن: "إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر ، وبالفكر على الذكر

---

(١) الأعراف: ١٤٦ .

حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة".

وكان داود الطائي رحمه الله على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له، فوثب صاحب الدار من فراشه وبيده سيف ظن أنه لصّ، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح، قال: ما شعرت بذلك.

وأشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في التأمل في أسماء الله وصفاته، وجنته وناره، ونعيمه وعذابه، وآخرته وآلائه وآياته المسطورة في كتابه والمنثورة في كونه وما خلق سبحانه وتعالى، وما ألذ هذه المجالس وما أحلاها وما أطيبها لمن رزقها، وقال الشافعي رحمه الله: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر. وكان الشافعي رحمه الله: من أقوى الناس عقلاً وأجودهم استنباطاً، ومن القلائل الذين مروا في الأمة الإسلامية بهذه المنزلة، وقال أيضاً: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم على الرأي سلامة من التفريط والندم والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة، ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم.

وقال أيضاً: الفضائل أربع، إحداها الحكمة وقوامها الفكرة والثانية العفة وقوامها التغلب على الشهوة والثالث القوة وقوامها التغلب على الغضب، والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس.

والنبيﷺ علّمنا التفكر لما قام من الليل ينظر في السماء ويقرأ، فقراءة الآيات من سورة آل عمران في الليل سنة قبل صلاة الليل، وهذه من السنن المهجورة، إذا قام من النوم يمسح النوم عن عينيه كما ورد في السنة ثم يقرأ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبابِ﴾.

في البخاري عن ابن عباس بعد أن قرأ الآيةﷺ ثم قام فتوضأ واستنّ فصلى ركعتين ثم خرج فصلّى الصبح، فلذلك على أحد القولين قراءتها قبل الخروج لصلاة الصبح وقبل الوضوء وقبل سنة الفجر.. والقول الآخر قبل قيام الليل.

فائدة التفكر:

تكثير العلم واستجلاب المعرفة لأنه إذا اجتمع في القلب اجتمعت المعلومات الأساسية وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة، فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل نتاج آخر! . . فالعلماء من أين أنتجوا انتاجهم وأحكام الفقه والأحكام المستنبطة والتفسير . .؟ جزء كبير خرج من التأمل في آيات الله والتأمل في الأحداث والوقائع . .!

الأمور المشكلة والمستعصيات كيف حُلّت . .؟!

أبو حنيفة قالوا له هذا شخص وهذا أخوه عقدنا لهما على أختين لما صارت الدخلة بالخطأ دخل الأخ الأول على زوجة الثاني ودخل الأخ الثاني على زوجة الأول ووطئها تلك الليلة ولم يكتشفوا ذلك إلا في الصباح، الحل يحتاج لتفكر وتدبر، تعال يا فلان هل أعجبتك المرأة التي دخلت بها؟ رضيت بها؟ نعم، وأنت يافلان؟ نعم، يا فلان طلق فلانة التي عقدت عليها ويا فلان طلق فلانة ثم عقد لكل منهم على الأخرى!

الجمع بين النصوص كيف حُلّت . .؟!

كيف نجمع بين ﴿ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ و«**الميت يعذب ببكاء أهله عليه**»، «**بما نيح عليه**» . .؟!!

فيفكر العلماء . . يقولون هذا خاص بالكافر مثلاً . . هذا إذا كان راضياً بالنياحة وهو يعلم بما يفعلون بالعادة ولم ينههم قبل موته . . وهكذا . .

من وسائل زيادة الإيمان التفكر في آيات الله في الكون.

. . في الآفاق . . في النفس . . ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾ . . فيما خلق الله . . ، فهذه الميادين في التفكر مهم جداً للإنسان المسلم والتفكر رأس المال وينتج بضاعة عظيمة جداً . .

فالثمرة الخاصة للتفكر العلم . . وإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب . . وإذا

تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح . . ، فالعلم تابع للفكر فالفكر هو المبدأ ينتج علماً والعلم ينتج حال في القلب من الخشية والإحساس بالتقصير في حق الله والرغبة والجد . . ينتجها العلم فيؤدي إلى زيادة أعمال الجوارح لأن القلب يأمر الجوارح بالعمل . . ، فيصلح الإنسان ويعلو شأنه ويتحسن حاله من نتيجة التفكر . .

محبة الله تحصل من التفكر في النعم . . لأن النفس مجبولة على محبة من أحسن إليها . . وكذلك فإن التفكر وسيلة لفهم الشر يعة ووسيلة للفقه في الدين : «**ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**» . . وهكذا تحصل البصيرة بالتفكر . .

التفكر في النفس ماهو . .؟

يشمل أن يتفكر في خلق الله كيف خلق نفس الإنسان وجسده ، والتفكر في النفس أيضاً يشمل التفكر في عيوبها وهذا مهم جداً جداً جداً ولا يمكن عمل تقويم وتصحيح وتعديل وتحسين إلا بعد التفكر ، وإذا كان فكره صحيحاً عرف العيوب واكتشف الأخطاء وبالتالي يمتنع عن الوقوع فيما وقع فيه سابقاً من الأخطاء ويجتهد في تحصيل ما يستر به عيوب نفسه . . غضب شديد . . حاد الطبع . . عجول . . متهور . . عصبي . . جبان . . خواف . . ظلوم . . معتدي . . باغي . . متعدي . . يفري بلسانه في أعراض الخلق . . وهكذا . . ، كذلك يفكر في حال عائلته وأسرته وأولاده كيف يحسن من أحوالهم ما هي الثغرات فيه؟

لو أردنا أن نصلح أحوال المسلمين . . المصلحين الكبار والمجددين الذين مروا على العالم الإسلامي ماذا فعلوا؟ . . بالتأكيد أول ما فعلوا هو النظر في حال المسلمين . . ماذا ينقصهم؟ أين الخلل؟ ما هي الثغرات؟ . . ثم شمروا في تحصيل أسباب القوة والارتقاء بحال المسلمين وسد الثغرات . . جهل . . شرك . . معاصي . .

ومن التفكر . . التفكر في خلق الله تعالى . . فإن فيه من العجائب والغرائب الدالة على حكمة الله وقدرته وجلاله شيء يهون الناظرين والمتفكرين والموجودات منقسمة إلى أشياء معروفة وغير معروفة . . ، ومجال العلم التجريبي والدنيوي أن يكتشف الأشياء غير المعروفة

وهي موجودة مما خلق الله عز وجل ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[١] . . ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ . . ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[٢] . . فمالا نستطيع أن نعرفه فلا يمكن إضاعة الوقت في استكشافه وهذا من الفروق في النظرة الإسلامية والغربية في قضايا المستكشفات والمخترعات . . ، مثلاً ما صحة القيام بما يسمى أبحاث الروح؟ . . لو هناك عالم طبيب مسلم وآخر كافر . . ماالفرق؟ . . المسلم يعلم أنه لا سبيل لمعرفة أي شيء في موضوع الروح زيادة عما ورد في الكتاب والسنة فلا حاجة لإضاعة الوقت لأنه يعلم ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[٣] ، الكافر . . لا . . ما عنده منطلقات وقواعد يمكن أن يبذل مائة سنة من عمره في التجارب أو أكثر وبلا فائدة . .! ، حتى الدخول في العوالم الغيبية وعمل التجارب على الملائكة مثلاً . .!

لذلك فمجال التفكر في الموجودات التي نعلمها من جهة الاستكشاف العلمي الدنيوي المقدور عليه . . ، وغير المقدور عليه لا يمكن ندخل فيه ، وهناك أشياء موجودة لا يمكن معرفة تفاصيلها إلا من الوحيين (مثل معرفة الملائكة والجنة وما بعد الموت) فالتفكر فيها يكون منطلقاً فقط من النصوص الشرعية . . ، أما قضايا الدنيا . . علم الأجنة . . والنجوم . . مثلاً وكالة ناسا أطلقت مناظير ومسبارات . . أو في أعماق البحار وقيعان المحيطات . . تنظر فيها تتأمل في ملكوت الله وخلقه . . ، تبقى الأشياء القطعية حتى في الأمور الدنيوية وهي ما جاء في الكتاب والسنة مثل من كل شيء زوجين اثنين . . وهكذا . .

فمن آياته ، الإنسان المخلوق من نطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من عجائب الله الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيره وقد أمرك الله في التدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾[٤] وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال: ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ

(١) النحل: ٨ .
(٢) الواقعة: ٦١ .
(٣) الإسراء: ٨٥ .
(٤) الذاريات: ٢١ .

* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾[١] ،

و قال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[٢] ،

وقال: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾[٣] ،

وقال: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[٤]

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[٥]

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾[٦] ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاماً كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾[٧] فتكرار ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليُسمَع لفظه ويترك التفكر في معناه . .!

انظر إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تُرِكت ساعة ليضربها الهوا ء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب؟ وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم؟

وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم أجزاء المضغة وهي متساوية متشابهة

---

(١) عبس: ١٧ - ٢٠ .
(٢) الروم: ٢٠ .
(٣) القيامة: ٣٧ .
(٤) المرسلات: ٢٠ .
(٥) يس: ٧٧ .
(٦) الإنسان: ٢ .
(٧) المؤمنون: ١٢ .

إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة، فدوّر الرأس وشقّ السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ثم مد اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص، ومقدار مخصوص، لعمل مخصوص، ثم كيف قسم كل عضو من الأعضاء بأقسام أخر، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار وهكذا . .

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل مستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ولما كان الإنسان محتاج إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الأخرى حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعطل عليه ذلك .

فلتلك النعمة العظيمة: «**على كل سلامى من أحدكم صدقة**» ٣٦٠ مفصل تجزئ عنها ركعتي الضحى . . فلننظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقد ركبها من ٥٥ عظم مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما ترى، وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فإن هذا علم قليل يعرفه الأطباء والمشرحون إنما الغرض أن ينظر في مدبرها وخالقها كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره، فالطبيب

ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها، وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا على جلالة خالقها ومصورها فشتّان بين النظرين . . ، وكذلك التفكر في أمر هذه الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعابها فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه، فترى به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب وكل ذلك صنعه الله في قطرة ماء قذرة، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبه؟ وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها . .؟

فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ ، ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ ، فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً وتأمل أنه لو اجتمعت الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً . . هل يقدرون على ذلك؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته لربما عجزوا عن بعضه! . والذي يعملونه في الاستنساخ هو تلاعب بخلق الله ﴿ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾وحتى الذبابة فلا يستطيعون أن يخلقوها من عدم فصارت قمة تطورهم الطبي التلاعب في الخلق، وزرع بويضة ملقحة لإنسان في قرد أو كلب وزرع بويضة ملقحة لكلب في رحم امرأة . .

هذه هي التجار ب الطبية، فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط، تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها كأنه إنسان، تعجبت من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله مع أنك تعرف أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وأن كل ما فعله أنه جعل الصبغ على هذا الحائط على ترتيب مخصوص وأنت تستعجب من النقاش والرسام فكيف بالذي جعل من النطفة القذرة التي كانت معدومة فخلقها في الأصلاب والترائب وأخرج منها هذا الشكل الحسن وقدرها فأحسن تقديرها وصورها فأحسن تصويرها ورتب عروقها وأعصابها وجعل لها مجاري لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعل البطن حاوياً لآلات الغذاء

والرأس جامعاً للحواس وهكذا جعل في الأذنين وجعل في الأنف حاسة الشم ليستدل صاحبه باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ويميز الطيب من الخبيث . .

وهكذا إذا تأملت في الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخرج اللسان قدرة للحركات والتقطيعات لتتقطع الأصوات في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق لكثرتها ، ثم خرج الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببه الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقاً حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة . . إلى غير ذلك من الآلاء والنعم . .

ثم تفكر في ما يحدث في خلق الجنين في الرحم في ظلمات ثلاث . . ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر لرأيت التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا ترى المصوّر ولا آلته فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا ترى آلته ومع ذلك يتشكل خلقه سبحانه وتعالى . .

ثم من تمام رحمته أنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكّس وانقلب وتهيأ للخروج وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه ، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي ، ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في اللبن اللطيف المستخرج بين الفرث والدم شيئاً سائغا خالصاً ، وكيف خلق الثديين وجعل فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي . . قدر الحلمة على قدر فتحة الفم في الصبي ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجياً فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه إلى الامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ، ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخّر خلق الأسنان إلى تمام الحولين ، لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغني عن السن وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ، ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان في وقت الحاجة . . فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثاة اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليها

للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه . .

فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجياً . . حتى يتكامل فيصير مراهقاً ثم شاباً ثم شيخاً إما شاكراً أو كفوراً ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[1]

فتأمل وتفكر في عظمة الرب سبحانه وتعالى وهذا في شيء واحد من مخلوقاته وهو الإنسان وفي الإنسان أشياء كثيرة أخرى وكثير منها غير معلوم للآن فما بالك فيما جعل في الأرض في أكنافها وأنهارها وجبالها وهيأ السكن للساكن وجعل الأرض فراشاً وكيف جعلها كفاتاً وأنه أرساها بالجبال الرواسي وأودع فيها المياه وفجر العيون وأسال الأنهار وجعل خزانات جوفية ﴿ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾[2] .

وهكذا ترى في البوادي والأزهار والثمار والمعادن والجواهر وانقسامها إلى خسيس وثمين وهكذا جعل منها ما يصنعه الإنسان من حاجته وحتى الحلي والنفط والكبريت والقار وحتى الملح الذي يحتاجه لتطييب طعامه وما في هذه الحيوانات من الأمور العظيمة والتناسب الدقيق الهندسي فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونها حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم يبتديء ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما متناسباً تناسباً هندسياً حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللُحمة (الكسوة) ، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على مواضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعي في جمع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البقّ والذباب ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه

---

(١) الإنسان: ١ .

(٢) الحجر: ٢٢ .

وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكساً في الهوا ء ينتظر ذبابة تطير ، فإذا طارت رمى بنفسه إليها فأخذه ولفّ خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى . . ، أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه؟ أو تكون من نفسه؟ أو علمه آدمي؟

فإذاً البصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات ، وإذا رأيت حيواناً غريباً ولو دوداً تجدد التعجب . . وقال سبحان الله . .!

والإنسان أعجب من الحيوانات . . ومع ذلك إذا رأى حيواناً عجيباً تعجب وليس يتعجب من نفسه . .!

وهكذا ما خلقه الله في البحار وما يكون في قيعانها وفي السحاب وما يجتمع فيها من المطر وكيف ينزل وفي ملكوت السموات والأرض . . ، والتفكر في مخلوقات الله قد أمر الله به وأنه سبحانه وتعالى مدح عباده ﴿ **وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ وأمر في التفكر وحث عليه . . في النفس ﴿ **أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم** ﴾ . . يتفكرون في خلق السموات والأرض لماذا . .؟

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: " ليستدلوا بها على المقصود منها ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين فإذا تفكروا عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً فيقولون ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ** ﴾ يعني نزهناك عن كل ما لا يليق بك" ، بعض الناس تفكره فقط إلى حد إتقان الصنعة وأنها صنعة جميلة لكن المقصود الأعظم ليس فقط التعجب من دقة الصنع بل لشيء وراء ذلك . .

والتفكر في أمور الآخرة من الأمور المهمة جداً ، وحيث أننا ما رأينا الآخرة ولا عشنا فيها ولا عندنا الآن من ثمار الجنة شيء ولا سلاسل النار شيء ، لكن عندنا من النصوص الشرعية ما يصف لنا بدقة بالغة كيف سيكون الحال يوم القيامة وهذه الأوصاف والتفاصيل

من رحمة الله حتى نجد شيء نتفكر فيه ، فلذلك كلما ازداد علمك بتفاصيل مافي اليوم الآخر كلما ازدادت حركة القلب في التفكر في هذه التفاصيل ، ولذلك لما سأل ابن المبارك ذاك لما رآه يتفكر قال له أين بلغت؟ قال: الصراط . . ، التفكر كان يأخذ وقت طويل جداً عند العلماء والأولياء بل كانوا يقدمون التفكر على صلاة الليل .

عن يوسف بن أسباط قال لي سفيان بعد العشاء: ناولني المطهرة - الإناء الذي يتوضأ به - فناولته ، فأخذها بيمينه ووضع يساره على يده فبقي مفكراً ونمت ثم قمت وقت الفجر فإذا المطهرة في يده كما هي . . فقلت هذا الفجر قد طلع . . فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الساعة . .

لماذا ذكر الله أشراط الساعة . .؟ لتكون مجالاً للتفكر . . لا بد أن تشغلنا هذه القضايا دائماً وهذا من الخلل الموجود فينا أننا لا نتأمل . . المشكلة أن مجالات التفكر اليوم لا في الحرام والعشق والحب والغرام أو في الدنيا فقط . . طغت الحياة الدنيا على الناس . . فصار التفكير نادر في القضايا المهمة التي عليها مدار السعادة . .

وجاء عن سفيان الثوري أيضاً أنهم كانوا جلوساً في مجلس فانطفأ السراج فعمّت الظلمة الغرفة فبعد ذلك أشعلوه فوجدوا سفيان رحمه الله دموعه انهمرت كثيراً كثيراً فقالوا مالك؟ قال: تذكرت القبر . .

فنظراً لأن قلوبهم حية ممكن أي مشهد أو حدث يصير في الواقع يربطه مباشرة بالآخرة والقبر . .

وأحد السلف كان على تنور فرن خباز فوقف ينظر في النار التي في التنور . . ثم جعلت دموعه تنهمر فبكى بكاء حاراً . . فقيل له مالك؟ قال: "ذكرت النار" . .

قال ابن عباس: " ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب" . .

قال عمر بن عبد العزيز: " الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادات" . .

وبكى عمر يوماً فسئل عن ذلك فقال: " فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت

منها بها ، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر ، إن فيها مواعظ لمن ادّكر" . .

فمن رحمة الله أنه جعل لذات الدنيا مهما عظُمت فيها تنغيص وتكدير حتى لا يستسلم العباد إليها ومع ذلك يستسلمون إليها!

وسأل عبدالله بن عتبة أم الدرداء ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: "التفكر والاعتبار" . .

نور الإيمان التفكر . . أفضل العمل الورع والتفكر . . تفكر ساعة خير من قيام ليلة . .

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: " اعلم أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه" . .

وعن محمد بن كعب القرظي: " لئن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بإذا زلزلت والقارعة لا أزيد عليهما وأتردد فيهما وأتفكر أحب إلي من أن أهذّ القرآن ليلتي هذّاً أو أنثره نثراً" . .

قال وهب: " ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرئ قط إلا عمل" . .

قال فضيل: " الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك" . .

عودوا قلوبكم البكاء وقلوبكم التفكر . .

فالإنسان عليه أن يديم التفكر ويطيله لأنه يوصل إلى مرضاة الله وانشراح الصدر وسكينة القلب ويورث الخوف والخشية من الله ويورث العلم والحكمة والبصيرة ويحيي القلوب ويصير هناك اعتبار واتعاظ من سير السابقين . . هذا التفكر . . العمل القلبي العظيم . . نسأل الله أن يجعلنا من الذين يتفكرون ومن الذين يعقلون ومن الذين يتدبرون . .

عن عون بن عبد الله قلت لأم الدرداء : أي عبادة أبى الدرداء أكثر ؟ قالت : التفكر والاعتبار .

* عن أبي الدرداء قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

* عن أبي الدرداء لما حضرته قال : من يعمل لمثل يومي هذا ، لمثل مضجعي هذا ؟

* قال الحسن البصري : خرج هرم بن حيان وعبد الله بن عامر بن كريز ، فبينما رواحلهما ترعى إذ قال هرم : أيسرك أنك كنت هذه الشجرة ؟ قال : لا والله لقد رزقنى الله الإسلام ، وإنى لأرجو ، قال : والله لوددت أنى كنت هذه الشجرة ، فأكلتنى هذه الناقة ، ثم بعرتنى فاتخذت جلة ، ولم أكابد الحساب ، يا ابن أبى عامر ويحك ! إنى أخاف الداهية الكبرى .

* عن مطرف بن عبد الله العامري قال : لأن يسألنى الله تعالى يوم القيامة : يا مطرف ألا فعلت أحب إلى من أن يقول لي لَم فعلت ؟

* عن محمد بن الحنفية قال : إن الله جعل الجنة ثمناً لأنفسكم فلا تبيعوا بغيرها .

* قال بُرد - مولى ابن المسيب - لسعيد بن المسيب : ما رأيت أحسن ما يصنع هؤلاء قال سعيد : وما يصنعون ؟ قال : يصلى أحدهم الظهر ، ثم لا يزال صافاً رجليه حتى يصلى العصر فقال : ويحك يا بُرد ، أما والله ما هى العبادة ، إنما العبادة التفكر في أمر الله ، والكف عن محارم الله .

* قال ابن أبى مليكة : شهدت عبد العزيز بن مروان عند الموت يقول : يا ليتنى لم أكن شيئاً . . يا ليتنى كهذا الماء الجاري . وقيل : قال : هاتوا كفنى : إف لك ، أقصرك طويلك وأقلك كثيرك .

* روى الثوري عن أبيه قال : كان الربيع بن خثيم إذا قيل له : كيف أصبحتم ؟ قال : ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا .

* عن الشعبي : ما بكيت من زمان إلا بكيت عليه .

* قال القاسم بن أبى أيوب : سمعت سعيد بن جبير يردد في هذه الآية في الصلاة بضعاً وعشرين مرة ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾[1] .

* عن بكير بن عتيق قال : سقيت سعيد بن جبير شربة من عسل في قدح فشربها ثم

---

(١) البقرة: ٢٨١ .

قال: والله لأسألن عنه قلت : لم ؟ قال : شربته وأنا أستلذه .

* عن طاووس بن كيسان : ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا أُحصى عليه حتى أنينه في مرضه .

* قال بلال بن سعد الكسونى : يا أهل التقى إنكم لم تخلقوا للفناء ، وإنما تنقلون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار .

* قال عطاء بن أبى رباح قال : إن مَنْ قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ، ما عدا كتاب الله ، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، أو أن تنطق في معيشتك التى لا بد لك منها ، أتنكرون أن عليكم كراماً كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحى أحدكم لو نُشرت صحيفته التى أملى صدر نهاره ، وليس فيها شيء من أمر آخرته .

* حج سليمان بن عبد الملك مع عمر بن عبد العزيز فأصابهم بَرْق ورعد حتى كادت تنخلع قلوبهم ، فقال سليمان : يا أبا حفص هل رأيت مثل هذه الليلة قط أم سمعت بها ؟ قال : يا أمير المؤمنين هذا صوت رحمة الله فكيف لو سمعت صوت عذابه ؟

* عن عطاء قال : كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذكرون الموت والقيامة والآخرة ويبكون .

* قال مكحول : بأي وجه تلقون ربكم ، وقد زهدكم في أمر فرغبتم فيه ، ورغبتم في أمر فزهدتم فيه ؟ .

* عن الشافعى قال : لما بنى هشام بن عبد الملك الرصافة بقنسرين ، أحب أن يخلو يوماً لا يأتيه فيه غم ، فما انتصف النهار حتى أتته ريشة بدم من بعض الثغور فقال : ولا يوم واحد !

* قال صالح المري لعطاء السلمي : يا شيخ قد خدعك إبليس ، فلو شربت ما تقوى

به على صلاتك ووضوئك ؟ فأعطاني ثلاثة دراهم وقال : تعاهدني كل يوم بشربة سويق ، فشرب يومين وترك وقال : يا صالح إذا ذكرت جهنم ما يسعني طعام ولا شراب .

* قيل : إن عطاء السليمي بكى حتى عمش ، وربما غُشي عليه عند الموعظة .

* عن أبي حازم المديني قال : ما أحببت أن يكون معك في الآخرة فاتركه اليوم .

* وقال : انظر كل عمل كرهت الموت من أجله فاتركه ، ثم لا يضرك متى مت .

* قال أبو حازم المديني : يسرُ الدنيا يُشْغِلُ عن كثير الآخرة .

* قال أبو حازم المديني : وما إبليس ؟ لقد عُصي فما ضر ، ولقد أُطيع فما نفع .

* عن أبي حازم المدني قال : إذا رأيت ربك يُتابع نعمَه عليك ، وأنت تعصيه فاحذره .

* قال حماد بن زيد : سمعت يونس بن عبيد يقول : توشك عيني أن ترى ما لم تر ، وأذنك أن تسمع ما لم تسمع ، ثم لا تُخرج من طبقة ، إلا دخلت فيما هو أشد منه ، حتى يكون آخر ذلك الجواز على الصراط .

* جاء رجل إلى يونس بن عبيد فشكا إليه ضيقاً من حاله ومعاشه واغتماماً بذلك فقال: أيسرك ببصرك مائة ألف ؟ قال : لا . قال : فبسمعك ؟ قال : لا . قال : فبلسانك ؟ قال : لا . قال : فبعقلك . قال لا . في خلال وذكره نعم الله عليه ثم قال يونس : أرى لك مئين ألوفاً وأنت تشكو الحاجة .

* عن عبد الله بن مسعود قال : يا أيها الناس إنكم مجموعون في صعيد واحد يسمعكم الداعي وينفذكم البصر ، ألا وإن الشقي في بطن أمه ، والسعيد من وُعظ بغيره .

* إن بعض الخلفاء سأل عمر بن ذر عن القدر فقال : ها هنا ما يشغل عن القدر ، قال: ما هو ؟ قال : ليلة صبيحتها يوم القيامة ، فبكى وبكى معه .

* عن القاسم بن معن أن أبا حنيفة قام ليلة يردد قوله تعالى : ﴿ **بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ** ﴾ ويبكي ويتضرع على الفجر .

obeikandl.com

كان مسعر بن كدام ينشد له أو لغيره :

فهارك يا مغرور سهو وغفلة ::: وليلك نوم والردى لك لازم
وتتعب فيما سوف تكره غبه ::: كذلك في الدنيا تعيش البهائم

قال جعفر بن عون : سمعت مسعر بن كدام ينشد :

ومشيدٍ داراً ليسكنَ دارَه ::: سكنَ القبورَ ودارُه لم تُسكَنِ

عن يوسف بن أسباط قال : قال لي سفيان الثوري بعد العشاء : ناولني المطهرة أتوضأ ، فناولته . فأخذها بيمينه ، ووضع يساره على خده ، فبقي مفكراً ، ونمت ثم قمت وقت الفجر ، فإذا المطهرة في يده كما هي ، فقلت : هذا الفجر قد طلع . فقال : لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الآخرة حتى ساعة .

* قال يوسف بن أسباط : كان الثوري إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم .

* عن أحمد بن يونس : سمعت الثوري ما لا أحصيه يقول : اللهم سلم سلم ، اللهم سلمنا وارزقنا العافية في الدنيا والآخرة .

* عن سفيان الثوري : من سُر بالدنيا نُزع خوف الآخرة من قلبه .عن شقيق البلخي قال : أخذت الخشوع عن إسرائيل بن يونس كنا حوله لا يعرف مَنْ عن يمينه ، ولا من عن شماله من تفكره في الآخرة ، فعلمت أنه رجل صالح .

* عن ابن السماك قال : هِمةُ العاقل في النجاة والهرب ، وهمة الأحمق في اللهو والطرب ، عجباً لعين تلذ بالرقاد ، وملك الموت معها على الوساد ، حتى متى يُبلغنا الوعاظُ أعلام الآخرة ، حتى كأن النفوس عليها واقفة ، والعيون ناظرة ، فلا منتبه من نومته ؟ أو مستيقظ من غفلته ؟ ومفيق من سكرته ؟ وخائف من صرعته ؟ كدحاً للدنيا كدحاً ، أما تجعل للآخرة منك حظاً ؟ أقسم بالله لو رأيت القيامة تخفق بأهوالها والنار مشرفة على أهلها ، وقد وضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء ، لسرك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة ، أبعد الدنيا دارُ معتمل أم إلى غير الآخرة منتقل ؟ هيهات ولكن صُمت الآذان عن المواعظ ، ودُهلت القلوب عن المنافع ، فلا الواعظ ينفع ولا السامع ينتفع .

* وعنه : هب الدنيا في يديك ، ومثلُها ضُم غليك وَهبِ المشرق والمغرب يجيء إليك فإذا جاءك الموت فماذا في يديك ؟ ألا من امتطى الصبر قوي على العبادة ، ومَنْ أجْمَعْ الناس ، استغنى عن الناس ، ومن أهمته نفسه لم يول مَرَمتها غيره ، ومن أحب الخير وفق له ، ومن كره الشر جُنِبَهُ ، ألا متأهب فيما يوصف أمامه ، ألا مستعد ليوم فقره ، ألا مبادر فناء أجله ما ينظر من ابيضت شعرته بعد سوادها ، وتكشر وجهه بعد انبساطه ، وتقوس ظهره بعد انتصابه ، وكل بصره وضعف ركنه ، وقل نومه ، وبلى منه شيء بهد شيء في حياته ، فرحم الله امرءاً عقل الأمر وأحسن النظر واغتنم أيامه .

* وعنه : الدنيا كلها قليل ، والذي بقى منها قليل ، والذي لك من الباقى قليل ، ولم يبقَ من قليلك إلا قليل ، وقد أصبحت في دار العزاء وغداً تصير على دار الجزاء ، فاشترى نفسك لعلك تنجو .

* قال المسيب بن واضح الزاهد العمري بمسجد منى يقول:

لله دَرّ ذوي العُقُولْ ::: والحِرْصِ في طلب الفُضُولِ
سُلاّبُ أكْسِيةِ الأرامِلِ ::: واليتامى والكُهُولِ
والجامعينَ المكثرينَ ::: من الجِنَايةِ والغُلُولِ
وضعوا عقولَهم من ::: الدنيا بمَدْرَجَةِ السُيولِ
وهو بأطرافِ الفُروع ::: وأغفلوا عِلْمَ الأصولِ
وتتبعوا جَمْعَ الحطامِ ::: وفارقوا أثرَ الرسولِ
ولقد رأوا غِيلانَ رَيبِ ::: الدهر غولاً بعد غولِ

. .إن ابن المبارك مر براهب عند مقبرة ومزبلة فقال : يا راهب عندك كنز الرجال ، وكنز الأموال ، وفيها معتبر .

* قال الفضيل : لو خُيرت بين أن أعيش كلباً وأموت كلباً ولا أرى الآخرة لاخترت ذلك .

* عن الفضيل قال : والله لأن أكون تراباً أحب إلى من أن أكون في مسلاخ أفضل أهل الأرض ، وما يسرني أن أعرف الأمر حق معرفته إذا لطاش عقلي ولم أنتفع بشيء .

* عن الفضيل قال : ليست الدنيا دار إقامة ، وإنما آدم أُبط على الدنيا عقوبة ، ألا ترى كيف يزويها عنه ، ويمررها عليه بالجوع وبالعري ، كما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها مرة حُلواً ومرة صبراً وإنما تريد بذلك ما خير له .

* عن الفضيل قال : إنما أمس مثل ، واليوم عمل ، وغد أمل .

* قال أبو سليمان الدارانى : كان على بن الفضيل لا يستطيع أن يقرأ القارعة ولا تقرأ عليه .

* كان على بن الفضيل عند سفيان بن عُيينة فحدث بحديث فيه ذكر النار فشهق على شهقة ووقع ، فالتفت سفيان فقال : لو علمت أنك ها هنا ما حدثت به ، فما أفاق إلا بعد أن شاء الله .

* عن إبراهيم بن بشار قال : الآية التى مات فيها على بن الفضيل في الأنعام : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾[1] مع هذا الموضع مات وكنت فيمن صلى عليه .

* عن سفيان بن عُيينة قال لى أبو بكر بن عياش : رأيت الدنيا في النوم عجوزاً شوهاء .

* قال سفيان بن عُيينة : دخلت على هارون الرشيد فقال : يا أبا إسحاق إنك في موضع وفي شرف ، قلت : يا أمير المؤمنين ذلك لا يُغني عني في الآخرة شيئاً .

* وقال الأصمعى : سمعت يحيى بن خالد يقول : الدنيا دُول ، والمال عارية ، ولنا بمن قبلنا أسوة ، و(فينا) لمن بعدنا عبرة .

* قال أبو نواس :

سبحانَ ذي الملكوتِ أيةُ ليلةٍ ::: مَخضت صبيحتُها بيوم الموقفِ
لو أنْ عيناً وهمتْها نفسها ::: ما في المعادِ مصوراً لم تطرفِ

---

(١) الأنعام: ٢٧ .

* وله :

ألا كل حي هالك وابن هالكٍ ::: وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفتْ ::: له عن عدو في ثياب صديقِ

* وقيل للشافعي: ما لك تُكثر من إمساك العصان ولست بضعيف؟ قال: لأذكر أني مسافر .

عن بشر بن الحارث : أمس قد مات ، واليوم في السياق ، وغداً لم يولد .

* وعن فتح الموصلي : من أدام النظر بقلبه أورثه ذلك الفرح بالله .

* وكان محمد بن سلام يقول : أفنيت ثلاثة أهلين ماتوا ، وها أنا في الرابعة ولي أولاد .

* قال إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد : سمعت يحيى بن معين ، يقول : ما الدنيا إلا كحلم ، والله ما ضر رجلاً أتقى الله على ما أصبح وأمسى ، لقد حججت وأنا ابن أربع وعشرين سنة ، خرجت راجلاً من بغداد إلى مكة ، هذا من خمسين سنة كأنما كان أمس .

* وكنت أسمع أحمد بن حنبل كثيراً يقول : اللهم سلم سلم .

* وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي يقول : وددت أني نجوت من هذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي .

* يقول أحمد بن حنبل : والله لقد أعطيت المجهود من نفس ، ولوددت أني أنجو كفافً .

* سمعت أحمد بن حنبل ، يقول : ما شَبهتُ الشبابَ إلا بشيء كان في كُمي فسقط .

* وعن موسى بن معاوية قال : صلى بنا هارون الخليفة الصبح في المسجد الحرام ، فقرأ بالرحمن والواقعة ، فتمنيت أنْ لا يسكت من حسن قراءته ، فقمت إلى الفضيل ، فسمعته يقول : مسكين هارون ، قرأ الرحمن والواقعة ولا يدري ما فيها .

* قال الجنيد : وسمعت السري السقطي يقول : إني لأنظر على أنفي كل يوم مخافة أن يكون وجهي قد اسود ، وما أحب أن أموت حيث أعرَف ، أخاف أن لا تقبلني الأرض ، فأُفتضح .

* سمعت محمد بن يحيى يقول : تقدم إلى عالِم ، فقال : علمني وأوجز ، قال : لأوجزن لك ، أما لآخرتك : فإن الله أوحى إلى نبي من أنبيائه : قل لقومك : لو كانت المعصية في بيت من بيوت الجنة لأوصلت إليه الخراب .

* قال محمود بن والان : سمعت عبد الرحمن بن بشير ، سمعت ابن عُيينة يقول : غضب الله داء لا دواء له .

* قال الذهبي : دواء كثرة الاستغفار بالسحر والتوبة النصوح .

* قال يحيى بن معاذ الرازي : الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، وهو يسألك عن جناح بعوضة .

ومن قول ابن علي الثقفي : يا مَنْ باع كل شيء بلا شيء واشترى لا شيء بكل شيء .

* وقال : أف من أشغال الدنيا إذا أقبلت ، وأف من حسراتها إذا أدبرت . العاقل لا يركن إلى شيء إن أقبل كان شغلاً ، وإن أدبر كان حسرةً .

* قال الحاكم : سمعت الأصم ، وقد خرج ونحن في مسجده ، وقد امتلأت السكة من الناس في ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثلاث مئة . وكان يملى عشية كل يوم اثنين من أصوله . فلما نظر إلى كثرة الناس والغرباء وقد قاموا يطرقون له ، ويحملونه على عواتقهم من باب داره (إلى مسجده) ، فجلس على جدار المسجد ، وبكى طويلاً ، ثم نظر إلى المستملى ، فقال : أكتب : سمعت محمد بن إسحاق الصفانى يقول : سمعت الأشج ، سمعت عبد الله بن إدريس يقول : أتيت يوماً باب الأعمش بعد موته فدقت (الباب) ، فأجابتى جارية عرفتنى : هاي هاي (تبكى) : يا عبد الله ، ما فعل جماهير العرب التى كانت تأتى هذا الباب ؟ ثم بكى الكثير ، ثم قال : كأنى بهذه السكة لا يدخلها أحد منكم ، فإنى لا أسمع وقد ضعف البصر ، وحان الرحيل ، وانقضى الأجل ، فما كان إلا بعد شهر أو أقل منه حتى كف بصره وانقطعت الرحلة ، وانصرف الغرباء ، فرجع أمره إلى أنه كان يناول قلماً ، فيعلم أنهم يطلبون الرواية ، فيقول : حدثنا الربيع ، وكان يحفظ أربعة عشر حديثاً ، وسبع حكايات ، فيرويها ، وصار بأسوأ حال حتى توفي .

* جاور أبو يزيد المروزي بمكة سبعة أعوام، وكان فقيراً يقاسي البرد ويتكتم ويقنع باليسير. أقبلت عليه الدنيا في آخر أيامه، فسقطت أسنانه، فكان لا يتمكن من المضغ، فقال: لا بارك الله في نعمة أقبلت حيث لا ناب ولا نصاب، وعمل في ذلك أبياتاً.

* قال السُّلمىُ: سمعت أبا عثمان المغربى يقول: (ليكن تدبرك في الخلق تدبر عبرة، وتدبرك في نفسك تدبر موعظة، وتدبرك في القرآن تدبر حقيقة. قال الله تعالى: ﴿ أفلا يَتَدَبَرُونَ القُرآنَ ﴾[1].

قال ابن أبي زمنين:

لا تَطْمَئِن إلى الدنيا وزُخرفِها ::: وإنْ تَوَشحْت من أثوابها الحسنا
أين الأحبةُ والجيرانُ ما فعلوا ::: أين الذين هم كانوا لنا سَكَنا

سقاهم الدهرُ كأساً غيرَ صافيةٍ فصيرتُهم لأطباقِ الثرى رَهَنا.

* قال ابن الجوزي:

* عقارب المنايا تلسع، وجُدران جسم الآمال يمنع، وماء الحياة في إناء العمر يرشح.

وفي سنة أربع وخمسين: كان ظهور الآية الكبرى وهى النار بظاهر المدينة النبوية، ودامت أياماً تأكل الحجارة، واستغاث أهل المدينة إلى الله وتابوا، وبكوا، ورأى أهل مكة ضوءها من مكة، وأضاءت لها أعناق الإبل ببصرى، كما وعد رسول الله ﷺ فيما صح عنه. وكسف فيها الشمس والقمر، وكان فيها الغرق العظيم ببغداد، وهلك خلق من أهلها، وتهدمت البيوت، وطفح الماء على السُور.

* ومن شعر علي بن الحسين الربعي:

إنْ كنتَ نِلْتَ من الحياة وطيبِها ::: من حُسْنِ وجهِك عِفةً وشبابا
فاحذرْ لنفسك أنْ ترى متمنيا ::: يوم القيامة أن تكون تُرابا

* * * * *

(١) محمد: ٢٤.

المبحث العاشر:

القناعة

القناعة الرضا بالقسم (أي النصيب والحظ)[١].

قال الراغب : القناعة الاجتزاء باليسير من الأغراض المحتاج إليها . قال الجاحظ : القناعة هي : الاقتصار على ما سنح من العيش والرضا بما تسهل من المعاش وترك الحرص على اكتساب الأموال وطلب المراتب العالية مع الرغبة في جميع ذلك وإيثاره والميل إليه وقهر النفس على ذلك والتقنع باليسير منه . قال المناوي : القناعة عرفاً : الاقتصار على الكفاف ، وقيل الاكتفاء بالبُلغة ، وقيل سكون الجأش عند وعدم المألوفات ، وقيل الوقوف عند الكفاية) [٢].

مراتب القناعة:

المرتبة الأعلى: أن يقتنع بالبُلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه .

المرتبة الأوسط: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية ويحذف الفضول والزيادة .

المرتبة الأدنى: أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سنح ، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً ، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيراً .

آثار القناعة:

١ - امتلاء القلب بالإيمان بالله سبحانه وتعالى والثقة به والرضا بما قدر وقسم .

٢ - الحياة الطيبة .

٣ - تحقيق شكر المنعم سبحانه وتعالى .

٤ - الفلاح والبشرى لمن قنع .

---

(١) قاله ابن السني في كتابه القناعة .

(٢) كتاب موسوعة نضرة النعيم .

٥ - الوقاية من الذنوب التي تفتك بالقلب وتذهب الحسنات كالحسد والغيبة والنميمة والكذب .

٦ - حقيقة الغنى في القناعة .

٧ - العز في القناعة والذل في الطمع .

٨ - القانع تعزف نفسه عن حطام الدنيا رغبةً فيما عند الله .

٩ - القنوع يحبه الله ويحبه الناس .

١٠ - القناعة تشيع الألفة والمحبة بين الناس .

من الأسباب المؤدية للقناعة:

١ - الاستعانة بالله والتوكل عليه والتسليم لقضائه وقدره .

٢ - قدر الدنيا بقدرها وإنزالها منزلتها .

٣ - جعل الهمّ للآخرة والتنافس فيها .

٤ - النظر في حال الصالحين وزهدهم وكفافهم وإعراضهم عن الدنيا وملذاتها .

٥ - تأمل أحوال من هم دونك .

٦ - مجاهدة النفس على القناعة والكفاف .

٧ - معرفة نعم الله تعالى والتفكر فيها .

٨ - أن يعلم أن لبعض النعيم ترة ومفسدة .

٩ - أن يعلم أن في القناعة راحة النفس وسلامة الصدر واطمئنان القلب .

١٠ - الدعاء[1] .

١١ - تقوية الإيمان بالله تعالى ، وترويض القلب على القناعة والغنى .

---

(١) كتاب كنز القناعة للشيخ د . محمد الركبان - دار القاسم بالرياض - الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ .

obeikandl.com

١٢ - اليقين بأن الرزق مكتوب والإنسان في رحم أمه .

١٣ - تدبر آيات القرآن العظيم لا سيما ما تتحدث عن الرزق والاكتساب .

١٤ - معرفة حكمة الله تعالى في تفاوت الأرزاق والمراتب بين العباد .

١٥ - العلم بأن الرزق لا يخضع لمقاييس البشر من قوة الذكاء وكثرة الحركة وسعة المعارف .

١٦ - العلم بأن عاقبة الغنى شر ووبال على صاحبه إذا لم يكن الاكتساب والصرف منه بالطرق المشروعة .

١٧ - النظر في التفاوت البسيط بين الغني والفقير على وجه التحقيق .

* * * * *

obeikandl.com